محمود تيمور

اتجاهات الأدب العربي

في السنين المائة الأخيرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٩٣٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

محمود تيمور

اتجاهات الأدب العربي

في السنين المائة الأخيرة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٩٣٧٧

الأدب العربي
في السنين المائة الأخيرة

معالم البحث

- الأدب العربي في عصور التخلف .
- انتفاضة الشرق وأثرها في الأدب .
- نصيب الأدب من جهود البعثات العلمية .
- مرحلة التحرر القومي ومهمة الأدب فيها .
- تحرير المرأة واشتراكها في الميدان الأدبي .
- ترجمة الأدب القصصي .
- نشأة الرواية التاريخية في الأدب العربي وتطورها .
- الرومانسية في الأدب العربي الحديث .
- أدب المهجر .

- تجديد الشعر العربى .
- الصحافة ونهضة الأدب .
- تطوير النهضة .
- معركة القديم والجديد .
- القصة الفنية وروادها فى الأدب العربى .
- أعلام الكتابة القصصية .
- المؤثرات فى تقويم القصص الفنى .
- محاولة الأدب تعصير اللغة والأسلوب والموضوع .
- التصوير الفنى للمشكلات الاجتماعية .
- الأدب بين العامية والفصحى .
- مجمل الطابع الحاضر للأدب العربى .

١

إذا أردنا أن نحدد على وجه التقريب الفترة التي تعتبر فترة الحضانة والتنشئة لهذا الأدب العربي الحديث ، جاز لنا أن نحددها بالسنين المائة التي مضت فيما بين القرن الماضي ومنتصف القرن الحاضر .

والأدب العربي — كما هو معروف — أدب عريق ، اجتاز من عمر التاريخ مراحل طوالا ، إذ يتواصل نسبه خلال خمسة عشر قرناً أو يزيد ، وهو إلى ذلك أدب عالمي استمد من مختلف ثقافات البلاد والأمم السالفة خصائص شتى ، وكان له من بعد أثر بعيد في كثير من الآداب العالميـــة الأخرى ، على تباين اللغات الشرقية والغربية ، في عديد من العصور .

ولكن هذا الأدب العربي مع ذلك كله ، تعاورته أسباب

الضعف والخمول ، طوعا لما أصاب الأمة العربية فى عهودها المغولية والمملوكية من عوامل التخلف والتفكك والجمود ، فانكمش الأدب أثناء تلك العهود المظلمة فى نطاق ضيق ، يدور حول أغراض تافهة ، فلا يستجيب لما يضطرم فى وجدان الحياة من جوهر إنسانى صميم ، ولا يسهم بقدر كاف فى توجيه اجتماعى إيجابى ، يعبر عما فى نفوس الناس من آلام وآمال .

٢

وانتفض الشرق انتفاضته الجديدة ، ففتح عينيه على حضارة أوربية ذات نظم فى السياسة ، وأوضاع فى الاجتماع ، وحقوق للإنسان ، ومذاهب فى الفكر ، وألوان من الأدب ، كانت كلها قد نمت وربت وازدهرت ، بفضل كفاح شعبى مرير ، وصراع عقلى مديد ، وأفانين من التجارب والممارسات ، فى غضون مئات من السنين ، والشرق يومئذ منعزل يغط فى نومه العميق ، تحت ضغط الظروف والملابسات التى أسلمته إلى حكم استبدادى عانى منه ما عانى من ضروب الاضطهاد .

وقد دعمت هذه الانتفاضة الجديدة فى ربوع الشرق عناصر كثيرة ، فى مقدمتها ثلاثة : الأول ظهور المطبعة ، التى يسرت للتعليم أن ينتشر ، وأتاحت للثقافة أن تشيع . والثانى رحيل البعثات

التى عادت من « أوربا » تحمل مشاعل العلم والمعرفة فى أضوائها الجديدة . والثالث بزوغ الوعى الشعبى الذى ساعد على تكوين الشخصية الوطنية .

وإن انتفاضة الشرق فى ذلك العهد ، هى بمنزلة «عصر النهضة» أو «عصر البعث» فى الآداب الأوربية ، ذلك العصر الذى سمى « الرنيسانس » ، على ما بين الانتفاضة الشرقية والنهضة الأوربية من فوارق تستدعيها مقتضيات الأحوال واختلاف العوامل بين الشرق والغرب .

وكما حدث فى عصر النهضة ، أو عصر البعث الأدبى فى «أوربا» من قيام تلك النهضة على دعائم من الأدب الإغريقى الذى كان يسمى الأدب الاتباعى أو الأدب الكلاسيكى ، حدث فى نهضة الأدب العربى أن قامت هى الأخرى على دعائم من أهمها ابتعاث القديم ، وإحياء التراث ، وتجديد الشعر بمحاكاة الفحول من الشعراء فى أزهى العصور السوالف ، وتقليد الأساليب البليغة والفنون الأدبية القديمة ، مثل « المقامات » ، والتعلق بالأحكام المنطقية التى كانت تسود الفكر العربى إبان ازدهاره فى حضارة العرب ، والقوانين البلاغية التى تجمدت على أقلام العلماء والنقاد فى مراحل شتى من الزمن .

ونظرة إلى شعر « البارودى » ، وهو أول شاعر من ثمار النهضة ، ترينا أن أكبر ما قام به هو أنه ارتفع بموضوع الشعر عن الأغراض الهزيلة التى كان يسبح فيها الشعراء فى عصور الركاكة والتخلف ، وأنه رد ديباجة الشعر وعموده وأغراضه إلى ذلك المستوى الذى كان لعباقرة الشعر العربى فى ماضيه البعيد . ويفسر هذه النظرة أن « البارودى » نفسه أراد أن يخدم نهضة الشعر ، فقدم لطلابه « مختارات » من أروع ما قال أولئك الشعراء فى العهود المواضى ، فكان التجديد عند « البارودى » هو الرجوع إلى هؤلاء الشعراء ، والاستمداد مما تركوه ، وسبيل هذا عنده أن يستظهر الجيل الجديد نخبة الذخائر من ذلك الأدب العربى الكلاسيكى التليد .

وكما تجلى ذلك فى جانب الشعر ، تجلى أيضاً فى جانب النثر ، فقد كان جهد ما تتطاول إليه أقلام الكتاب أن يصطنعوا أساليب البلغاء من المتقدمين أمثال « الجاحظ » و « الهمذانى » و « القاضى الفاضل » على تنوعها ، واختلاف خصائص كل منها ، وكانوا يفاخرون بأنهم قد تدانوا من مثالها ، واتخذوا منها مثالا يحتذى . بل لقد حاول أولئك الكتاب أن يحيوا فناً أدبياً قديماً هو فن « المقامات » الذى برع فيه « الهمذانى » و « الحريرى » فيما مضى ،

وهو لون من ألوان القصص العربى . فكتب «اليازجى» على ذلك الغرار كتابه «مجمع البحرين»، وهو إلى اللغة والتعليم أقرب . وكتب «المويلحى» كتابه «حديث عيسى بن هشام» فكان تطوراً لفن الأدب المقامى، ينتحى منحى القصص الفنى، ويعالج من الشئون ما يتصل بالحياة أوثق الاتصال .

وعلى الرغم من أن العقلية العربية قد نضجت فى عهدها الراهن بثمائر من العلم الحديث، والحضارة الجديدة، وعلى الرغم من أن الجهد الفكرى والإنتـــاج الأدبى فى شتى مواطن العروبة يسهم إسهاما كبيراً فى متابعة الفكر العالمى والأدب الإنسانى، وفى التأثر بمختلف التيارات التى تسفر عنها مناهج البحث وطرائق النقد فى الشرق والغرب على السواء — على الرغم من هذا كله، فإن هناك نزعة عميقة الجذور فى كيان الوطن العربى بمدلوله الواسع، وهذه النزعة لا تبرح تهفو بالمفكرين وقادة الرأى إلى الاستمساك بالأصول العريقة فى أدب العروبة، وما أنتجته قرائح العرب على مد العصور الخالية، واعتبار هذه الأصول ينبوعا عذباً نقياً للتنشئة اللغوية وتربية الملكات وتقويم الشخصية فى هذا الجيل وفيما يستقبل من الأجيال، وإن هذه الأصول لتحمل فى التعبير عنها على ألسن الكتاب والنقاد أشرف الكلمات دلالة وأوفرها سناء، فهى تسمى

تارة « الذخائر » وحينا « النفائس » وطورا « الكنوز » وآنا تسمى « التراث » . وليس أدل على هذا النزوع العميق من أنك لا تكاد تجد مؤسسة ثقافية ، حكومية كانت أو أهلية ، إلا رأيتها قد جعلت فى طليعة أهدافها البحث عن هـــذه الأصول وتحقيق نصوصها وتقريب منالها من الأنظـار والأفكار ، متخذة لها فى ذلك اسم « البعث » أو « الأحياء » أو « النشر » أو ما إلى ذلك من الأسماء التى تشعر بجلالة ماترمى إليه من هدف .

ولا ريب فى أن لهـذا النزوع مغزى كبيراً فى واعية الرأى العربى العام ، ذلك المغزى هو أن أبناء العروبة اليوم فى كل مكان حراص على أن يحتفظوا للشخصية العربية بذلك الطـابع المستقل الذى تجلت عبقريته فيما شاد من حضارة فكرية وعمرانية تشرق بها صفحات التاريخ . وقد كان فى عناصر تلك الحضارة ما مهد الطريق من بعد للحضارة العالمية التى تعيش فيها البشرية الآن . فالعرب باعتزازهم بلغتهم ، وإجلالهم لما خلفه لهم أسلافهم فى هذه اللغة من مدد عقلى غزير ، يبغون أن يقروا فى وجدان كل عربى أسس هذا الاعتزاز والإجلال ، وذلك إلى جانب إيمانهم بأن فى هذا التراث بذورا صالحة للانتفاع بها على تعاقب الأحقاب . ومن أجل ذلك ، ومن أجل وحدة الفكر العربى التى شملت أوطان

العروبة فى عصورها المتطاولة ، يعتبرون الأدب العربى والثقافة العربية خلال تلك العصور غـــذاء حياً يجب التزود منه للحاضر والمستقبل .

ولكن هذا النزوع الروحى الموصول بروابط تاريخية واجتماعية ، ووشائج من وراثات الدم والنسب ، المستمد من الوحى الدينى المقدس ثباتا وركانة ، لا يقف سدا دون نزوع آخر يناظر ذلك النزوع قوة وحيوية وحرارة إيمان ، وهذا النزوع الآخر هو الإقبال على كل جديد من مناهج الأدب ، والاغتراف بما أفاضته العقلية الحديثة من مناهل المعرفة . فالفكر العربى الذى اتسع قبل ألف من السنين لحكمة الهند ، وثقافة الفرس ، وفلسفة يونان ، حتى استوعب ضروب المعارف والآداب فى مختلف الأمم على اختلاف العهود ، يستبقى اليوم فى كيانه هذه المرونة ، وسعة الأفق ، وخاصية الامتصاص ، ويعمل جاهدا على أن يتمثل ما جد تحت الشمس من أدب ومن ثقافة ومن عرفان . وهو لا يؤمن بالمثل القائل بأنه « لا جديد تحت الشمس » ، ولكنه يقتدى بما جاء فى الأثر من أن « الحكمة ضالة المؤمن ، فحيثما وجدها أخذها » .

٣

كانت البعثات تعود إلى الوطن العربى مزودة بما أفادت من ثقافة أوربية جديدة، وبما اطلعت عليه من ألوان الفنون والآداب، فتفرغت لترجمة منتخبات من تلك الثقافة الجديدة والآثار العلمية والفنية، فأتاحت للجيل العربى الناشىء أن يفتح عليها عينيه، ويملأ منها عقله ووعيه، وقد سادت الترجمة ذلك العهد، وكان أكبر الجهد مصبوبا فى ناحية تطويع اللغة العربية للتعبير عن المعانى والأغراض التى تحتويها الكتب المراد ترجمتها، ولذلك اتجهت الأنظار إلى ألفاظ اللغـــة العربية فى مختلف عهود حضارتها لاستخراجها والاستعانة بهـا فى أداء تلك المعانى والأغراض، وبخاصة فى ميدان العلم، وبذلت المحاولات لصوغ ألفاظ جديدة يصطلح عليها لكى تسد حاجة التعبير فى هذا الميدان.

ويمكن القول بأن الكتب التعليمية والمؤلفات التى تتنـاول فروع العلوم والصناعات كان لها نصيب الأسد من عناية المترجمين فى ذلك العهد، أما الكتب الاجتماعية فلم يكن لها إلا حظ قليل، وأما الكتب الأدبية فكانت أقل حظا. ومرد ذلك إلى أن العصر كان عصر بناء وتكوين، فالحاجة إلى العلم أقوى، واكتساب الصناعة أجدى، وهذه المعارف العملية فى الحياة هى الأساس فى

إقامة صرح المجتمع المتحضر ، وتقويم العقلية التي تساير الزمن وتتطور معه ، ولم يكن الأدب في ذلك الحين إلا لونا من الترف الفكرى ، يتخذ للمتعة والسلوى ، فلم ينفسح له مجال رحيب في عهد الجد والإنشاء والتعمير . ولذلك بقى الأدب العربي القديم — في عهد الترجمة للعلوم والفنون — هو المورد الذي يستقى منه الأدباء ، بيد أن هؤلاء الأدباء كان لهم فضل في إمداد المترجمين بالألفاظ والتعبيرات التي تذلل لهم عقبات الترجمة ، وترتفع بأساليبهم إلى المستوى الكتابي المقبول ، فأصبح من مهمة الأدب يومئذ خدمة لغة العلم ومؤازرتها بما يوفر لها دقة الأداء وسلامة التعبير . ومن ثم نرى أن الأدب والعلم يتمازجان في طائفة من أعلام ذلك العهد ، ونذكر من بينهم أعلاهم صوتا ، وهم : « رفاعة الطهطاوى » و « على مبارك » و « عبد الله فكرى » .

٤

وبعد مرحلة الترجمة التي كانت علمية في الأغلب ، بدأت النهضة تدخل في مرحلة أخرى تحريرية إصلاحية في شتى مناحى الحياة سياسية واجتماعية ودينية ، فطالعتنا قيادات فكرية متعددة المراكز تبشر بنظم وأهداف ، وتدعو إلى هدم وبناء ، وساعد على تقوية هذه القيادات الفكرية نشوء الصحافة ، وشيوع الطباعة ،

وقيام الأندية والجماعات والروابط والمجالس الخاصة لتلك الطبقة المستنيرة من أهل الرأى . وفى هذه الحقبة لمعت أسماء : « الأفغانى » و « محمد عبده » و « الكواكبي » و« قاسم أمين » و «سعد زغلول» و « لطفى السيد » ، فكان لهؤلاء الفرسان أثر عميق فى توجيه الجيل الجديد وجهة جديدة فى فهم الحياة وتقويم المبادىء التى تسلم المجتمع العربى إلى تقدم وازدهار .

فى هذه المرحلة كانت مهمة الأدب الأولى خدمة تلك الأغراض الإصلاحية والنقد الاجتماعى والثورة على التخلف والضعف ، وحث الهمم على نفض غبار الخمول ، وتنفيس النفوس من آثار الاستبداد والاستعباد . وأكبر ما تمخضت عنه تلك المرحلة من الإنتاج الأدبى فى ميدان الشعر هو القصيدة الوطنية أو الأخلاقية، وفى ميدان النثر هو المقالة الاجتماعية . فالشعراء والمقاليون كانوا يومئذ دعاة تحرير وتوجيه وإيقاظ .

أما فى غير هذا المجال فكان الأدب يتراءى فى بعض ما يعبر به الشعراء عن ذات أنفسهم من خواطر ، أو ما يصفون به ما تقع عليه أعينهم من مرئيات .

وكذلك كانت تتراءى لمحات أدب فنى فيما كان يقدمه « يعقوب صنوع » من مسرحيات مقتبسة ، وما كان يقدمه « عثمان جلال »

من مسرحيات أعلى مستوى فى الاقتباس ، وما كان يقدمه «أبو خليل القبانى» من مسرحيات مستلهمة من «ألف ليلة» وغيرها من تراث الأدب العربى القديم ، وما كان يجرى به قلم «عبد الله النديم» من أقاصيص فكهة الروح ، شعبية الطابع . إلى غير ذلك من النظائر والأشباه التى تتفاوت فى الجودة من ناحية التعبير ، وفى المستوى الفنى من ناحية الموضوع ومعالجته .

٥

ولقد كان من مظاهر عصر النهضة الرغبة فى تحرير المرأة ، وذلك بإنهاء عهد الحجاب وإشاعة السفور ، بحيث تستطيع المرأة أن تسهم فى ميدان العمل وفى بناء المجتمع ، والتقاليد يومئذ تحول دون خروج النساء ، واشتراكهن مع الرجال فى علم أو أدب أو صناعة ، وتقصر عملهن على إدارة دفة الأسرة داخل جدران البيوت بمعزل عن أضواء الطريق . وتجلت بشائر تحرير المرأة فى بزوغ شاعرة هى السيدة «عائشة التيمورية» التى كتبت أشعارها باللغات العربية والفارسية والتركية ، وألفت بعض القصص على نمط «ألف ليلة» ، وقد خلفتها فى حمل لواء الأدب النسوى الحديث السيدة «ملك حفنى ناصف» التى ظهرت براعتها فى فصول كتبتها فى الصحف باسم «باحثة البادية» ، وتعتبر «مارى زيادة»

التى ظهرت فيما بعد باسم « الآنسة مى » نموذج المرأة المتحررة التى اكتملت ثقافتها العربية والأوربية ، وأوتيت موهبة التعبير فى مستوى فنى أصيل . وقد انتعش الأدب النسوى بعد ذلك بفضل تعليم المرأة ودخولها الدراسة الجامعية واشتراكها فى ميادين الثقافة وفروع الأعمال ، فأصبح من النساء عدد كبير ، فيه من يشتغلن بالصحافة ، وفيه من يمارسن الأدب ، وفيه من يكتبن القصة ، وفيه من يشاركن فى البحث والتأليف والتعليم .

٦

وقد نبتت أثناء هذا العهد نابتة من المثقفين ثقافة أجنبية ، اطلعوا على ضروب من آداب الغرب ، وكثير من هؤلاء ينتسبون إلى تلك الرقعة العربية الواسعة التى كانت تسمى « الشام » حاوية فلسطين وسورية ولبنان ، فعكفوا على الترجمة ، وقربوا إلى العربية جملة من الأدب القصصى ومن أدب المسرح ، فلقى هذا اللون الجديد حفاوة وقبولا عند القراء العرب ، وتهافتوا عليه يطلبون منه المزيد . وهكذا أخذت ترجمة الأدب تقوى وتزدهر ، وتحتل فى عالم الصحافة وفى عالم النشر أعز مكان .

وقد بلغ من كثرة الترجمات فى تلك الحقبة وما تلاها أن إحدى دور الكتب العامة فى الشرق استطاعت إحصاء عشرة

آلاف قصة بين طويلة وقصيرة ترجمت إلى العربية قبل الحرب العالمية الأخيرة .

وليس من عجب أن تلق القصة بمنهجها الغربى هذه الحظوة من نفس القارىء العربى ، وأن يتزاحم عليها ليروى بها ظمأه إلى الأدب الفنى ، فإن الشعب العربى شعب قصاص بطبعه ، والقصة عريقة فى أدبه ، تسرى فى روحه ، وله منها وراثات قديمة مختلفة المنابع . وحسبك أنه ذلك الشعب الذى اتخذ فى شتى عصوره السوالف من القرآن مثله الأعلى ، وهو أحفل مصدر للقصص التاريخى الرفيع . وحسبك أيضاً أنه ذلك الشعب الذى تمخضت موهبته الفنية عن حشد زاخر من الأسمار والنوادر والأساطير انتهت به إلى ذلك اللون من القصص الشعبى الذى عرفه العالم أجمع ، وخاصة ألمع جوهرة فيه ، وهى حديث « شهر زاد » فى « ألف ليلة وليلة » .

وفى هذه الحقبة ترجمت آثار قصصية تتفاوت قيمها الفنية ، فكان منها الأصيل ، وكان منها الهزيل . وكذلك تعددت مصادر هذه الآثار المترجمة ، فكان منها الإنجليزى وكان منها الفرنسى ، على أن المترجمات عن الفرنسية كانت هى الكثرة الغالبة . وقد عرف القارىء العربى بفضل هذه الترجمات أعلام الأدب الأوربى ،

أمثال « شكسبير » و«موليير »و «راسين»و« كورنى »و« لامارتين»
و« شاتوبريان » و«فكتورهوجو»، يقدمها إليهم كتاب لامعون،
أمثال « نجيب الحداد » و « فرح أنطون » و « خليل مطران »
و « حافظ إبراهيم » و « أحمد زكى » و « محمد عوض محمد » .

٧

ولم تلبث الأنماط القصصية الأوربية أن أثرت فى واعية الكاتب العربى ، فهفت نفسه إلى محاكاتها ، ومواتاة لغته القومية بمثالها ، فكانت أولى محاولات المحاكاة الناجحة متصلة بميدان الرواية التاريخية . ذلك أن « جورجى زيدان » أحد أقطاب الصحافة الأدبية فى صدر النهضة كان له فضل التنبه إلى تقديم تاريخ الإسلام فى إطار روائى يدور أكثره حول محور غرامى ، وقد حرص على التزام ما سجله التاريخ من وقائع وأحداث ربط بينها بخيوط قصصية يتجاذبها أبطال من عالم الحقيقة أو من وادى الخيال . ولا ريب فى أن هذا الإطار الروائى عليه مسحة من القصة فى مدلولها الحديث ، بما تقوم عليه من عناصر الحادثة والعقدة والنهاية ، وما يتصل بهذه العناصر من تدبير المفاجآت وبث روح التفكيه والتشويق ، ولكن هذه الروايات مع ذلك من الناحية الفنية البحتة ومراعاة المستوى القصصى الرفيع تعتبر مرحلة أولية للقصة التاريخية

فى الأدب العربى ، وهذه المرحلة هى التى مهدت الطريق من بعد لطائفة من الكتاب والأدباء تناولوا أحداث التاريخ وشخصياته ، على أسس فنية من التحليل النفسى والتفسير الاجتماعى ، ومن استبطان ما وراء الظاهر من الوقائع والأحداث . ويحضرنى فى هذا المقام ما قدمه « إبراهيم رمزى » فى « باب القمر » و « الحاكم بأمر الله » ، وما قدمه الأستاذ « محمد فريد أبو حديد » من قصص شتى مستقاة من تاريخ العرب قبل الإسلام ، وما قدمه « الدكتور طه حسين » فى كتابه « على هامش السيرة » وكتابه «الوعد الحق» . وأسمح لنفسى بأن أشير إلى بعض محاولات لى تناولت فيها بالمعالجة والتحليل حياة « امرىء القيس » عبقرى الشعر فى العصر الجاهلى ، وحياة « الحجاج » أشهر الحكام فى عصر « بنى أمية » ، وحياة « عبد الرحمن الداخل » الملقب « بصقر قريش » وهو أحد الذين أقاموا دولة فى بلاد « الأندلس » التى أطلق عليهـــا فيما بعد اسم « الفردوس المفقود » . وأهم ما فى هذه المسرحيات التاريخية أنها نحت منحى الاستلهام النفسى ، والتعليل الاجتماعى ، والكشف عن حقيقة البطولة الإنسانية فى موطن ضعفها وفى ذروة قوتها .

٨

ولقد كانت هذه السنوات التي قوى فيها تعرف الأدب العربي إلى القصص الغربي امتدادا لعهود سياسية من الضغط والاضطهاد عانت فيها الأمة مرارة التحكم الأجنبي ، فسادت موجة من المشاعر الحزينة تعبر عن المسكنة والانكسار ، وأنست النفوس إلى الاسترسال في الحديث عن مآسي الحب والفقر والعادات وآثار التخلف الاجتماعي . فانعكس هذا كله على الكاتب القصاص والمترجم القصصي جميعا . ومن ثم رأينا القصة تأليفاً وترجمة تنساق في هذا التيار ، ورأينا الكتب تتودد إلى الأسماع بأمثال هذه العنوانات الشاجية : « اليتامى » و « البؤساء » و « المساكين » و « العبرات » و « الذبائح » و « الضحايا » و « الأبرياء » و « رسائل الأحزان » و « آلام فرتر » و « الأجنحة المتكسرة » . وكذلك كان من هم الكاتب أو المترجم إيثار القصص ذوات الخواتيم الفاجعة المثيرة ، تلك القصص الحافلة بالأشجان الجسام ، فيها تنصب ألوان النحس والبؤس على رءوس الأبطال ، فيسقطون في ميدان الكفاح ، مضرجين بدمائهم تحت مطارق الظلم والعنت ، تحف بهم عواطف الإشفاق والرثاء !

وقد نبغ في تلك السنوات أديب فصيح الأسلوب ، ناعم العبارة ،

يحسن تصوير الشعور الحزين ، ذلك هو «المنفلوطي» ، فألف بعض القصص على هذا الطراز ، وصقل بأسلوبه المتين قصصا مترجمة ، فكانت هـــذه وتلك ألحانا طربت لها الأسماع ، ومالت إليها النفوس ، وظلت أهازيج رائعة ترنم بها الجيل الماضى ، ووجد فيها شفاء لروحه المكلومة وقلبه المكروب . واليقين أن «المنفلوطى» كان يعرف ذلك من شأنه ، إذ قال فى مقدمة «عبراته» : «الأشقياء فى الدنيا كثير ، وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو كثيراً من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات لعلهم يجدون فيها تعزية وسلوى » .

ولا مندوحة لنا من الجهر بأن هذه الآلام والمآسى والفواجع التى دار حولها يومئذ الأدب عامة والأدب القصصى خاصة ، تشيع فيها السطحية والعمومية ، ولا تتناول من النفس دقائقها الخافية وأسرارها الدفينة ، وطريقة العرض فيها لم يكن لها من قوة الأداء ومنطق التعليل ما يرفع مستواها الفنى ، وما يمنحها نفحة الخلود .

فى تلك الفترة علا صوت التعبير الذاتى ، والخوالج الشخصية ، وتزاحمت أنغام الشكوى والأنين ، ومناجاة الأطياف ، والإيغال فى وصف العاطفة ، والجنوح إلى لون من الروحانية والتصوف ، وإطلاق العنان للأخيلة والأوهام . وأذكر أنه كان ثمة موضوع

لا يكاد يسلم من الكتابة فيه أديب ، ولا من التغنى به مطرب ، ذلك الموضوع هو نداء الليل ومسامرته ، وبثه ما فى الصدر من وجد ولوعة وحنين .

وفى مستطاعنا أن نتبين فى الأدب فى تلك الفترة سمات «الرومانسية» مع اختلاف دوافع توافرها فى الأدب العربى يومئذ ودوافع توافرها فى العصر الرومانسى للأدب الأوربى . فإن عصر الرومانسية فى أدب الغرب مرجعه إلى انتقال المجتمع الأوربى من عصر الأرستقراطية والإقطاع إلى عصر الطبقة الميسورة أو الطبقة الوسطى « البرجوازية » واستقبال عهد الآلة التى تطورت بها أوضاع الاجتماع والاقتصاد ، وهان بها شأن الفرد فى العمل الفنى ، فضاق الفنان بالقوالب الآلية التى غزت عصره ، ورأى نفسه قد غدا قالبا مثلها تحكمه حياة معقدة لا شخصية له فيها ولا كيان ، فتطلع إلى تعبير تعتز فيه الفردية ، ومن ثم تجلى فى الأدب الرومانسى الاعتداد بالعاطفة والإحساس والخيال ، والانتقاض على أوضاع المجتمع ، ومناصرة الفكر الحر ، والاتجاه إلى عبادة الطبيعة وما فيها من جمال ، هربا من وطأة الحياة المادية وسلطان « الآلة » ، ومن القيود فى الشكل ، ودعمـــا للشخصية المستقلة ، واستنقاذا للفردية الضائعة . أما سمات « الرومانسية » فى الأدب

العربى إذ ذاك ، فقد كان الدافع إليها ماضاق به المجتمع العربى من كبت وحرمان وضغط سياسى وركود اجتماعى ، وضعف فى المستوى العلمى والاقتصادى ،فتاقت النفوس إلى تنفيس وترفيه ، بالاسترسال فى متع الخيال ، والهيمان مع العواطف الملتهبة ، فرارا من جفاف الواقع وجموده ، وأنسا برحيق الأوهام فى كئوس من ذهب وهاج.
وعلى الرغم من اختلاف الدوافع بين نشوء المذهب الرومانسى فى الأدب الأوربى القديم ونظيره فى الأدب العربى الحديث ، نجد المشابهات بينهما واضحة كل الوضوح ، فى المظاهر والنتائج ، فكلاهما يقوم على العاطفة والخيال ، وكلاهما يؤثر انطلاق الفكر وحرية التعبير ، وكلاهما ينشد تقويم الذاتية الضائعة ، واستنقاذ الشخصية مما يحيط بها من قيود وأغلال .

٩

وبينما الأدب العربى فى الشرق يومئذ يستغرق فى رومانسيته ، إذ هبت عليه نفحات أدب عربى رومانسى أيضاً من وراء المحيط ، حيث الدنيا الجديدة ، فقد كان هنالك فى « أمريكا » مهجر لجماعات عربية من « لبنان » و « سورية » ، فنشأ منهم أدباء تأثروا بالحياة الغربية وآدابها ، واعتملت فى نفوسهم مشاعر الغربة والحنين إلى الأوطان ، فأفاضوا فى التعبير عن نزعاتهم فى منحى أوفر حرية

وأبعد انطلاقا ، حتى إنهم فى أساليبهم لم يبالوا ماتواضع عليه علماء العربية وأدباؤها من الأصول والقواعد كل المبالاة . وكان فى الأدب المهجرى فن شعرى يجرى فى الجملة من حيث الشكل على أوزان الشعر العربى وقوافيه ، وأما من حيث الموضوع ، فقد كان يحفل بالطريف المستحدث من المعانى والأغراض . على أن تلك النابتة الجديدة من أدباء المهجر قد ابتدعت ما سميناه « الشعر المنثور » وهو محاولة لسياقة المعانى الشعرية على نمط جديد يختلف عن القصيدة العربية الاتباعية الكلاسيكية فى ناحيتين : الأولى التحرر من الوزن والقافية ، والأخرى وحدة الموضوع وتسلسل فكراته تسلسلا نفسيا متداخلا لا افتعال فيه ولا استطراد. وقد تميز الأدب المهجرى بالجدة والطرافة ، وبرهافة الحس ورقة الشعور ، وبالسلاسة والعذوبة . وكان فى جملته دما جديدا اغتذى به الأدب العربى ، وجرى فى شرايينه ، فأورثه الحيوية والحرارة والانتعاش ، ولا ينسى تاريخ الأدب الحديث أعلام الأدباء المهجريين ، وفى مقدمتهم « جبران » و « الريحانى » و « نعيمة » و « إيليا أبو ماضى » .

١٠

وكان الشعر العربى وقتئذ قد استقبل عهداً جديداً من الازدهار أسلمته إليه وثبة « البارودى » الذى يعتبر مجدد الشعر فى مطلع العصر الحديث .

وإذا كان «البارودى» قد انحصر تجديده فى جانب قوة النسج ، وفصاحة اللفظ ، وفحولة التعبير ، محاكاة لأعلام الشعراء فى العصور العربية الزاهية ، فإن الشعراء الذين قفوا على أثره قد استفادوا أيما استفادة من الرقى العلمى والعقلى والاجتماعى فى عصرهم الحديث ، فأصبح التجديد فى شعرهم شاملا للموضوعات ، إذ تناولوا أحداث السياسة ، وعبروا عن الحركات القومية ، ونددوا بما كان شائعاً من الظلم والاستعباد ، وبما كان فاشياً من المساوىء الأخلاقية والاجتماعية ، وذلك كله إلى جانب تعبيرهم الفنى عن إحساسهم نحو جمال الطبيعة ومحاسن الكون ، وعن خوالجهم النفسية التى يستجيبون فيها للحياة ، ويعالجون مشكلات المجتمع البشرى ، ويهيمون فى سرائر الوجود .

ونحن حين نذكر «شوقى» و «حافظ» و «مطران» و «صبرى» و «بشارة الخورى» و «الزهاوى» و «معروف الرصافى» و «عبدالرحمن شكرى» و «العقاد» و «المازنى» وأضرابهم ، لا ننسى أنهم صفوة من الشعراء أتيحت لهم ألوان ثقافية متشعبة ، بفضل ماقرءوا فى العربية من تراث الأدب العربى ، وبما ترجم من نتاج الفكر الأوربى ، ومنهم من قرأ فى غير العربيـــة ذلك النتاج الفكرى ، فارتفع بذلك مستواهم العقلى ، ونضجت أذواقهم

الأدبية ، وظهر أثر هذا النضج والسمو فيما طرقوا من موضوعات، وما سبحوا فيه من أخيلة ، وما نظموا من قصيد .

كثر فى هذا الشعر التغنى بالأخلاق ، وبالمثل العليا ، والإشادة بأمجاد الماضى ، سواء أكانت من جانب العرب ، أم من جانب الفراعنة ، كما قوى التمجيد للحرية ، وتقديس الفداء ، والإعزاز لمواقف البطولة الوطنية والجهاد من أجل العقيدة والرأى ، وبذلك صارت دواوين أولئك الشعراء مرآة ينعكس عليها فى جلاء ما اضطرم فى الوطن العربى من كفاح قومى ، ونشاط فكرى ، وأمان وطنية ، ومن مثل سمت إليها الأفكار فى هذا العصر الحديث .

ولا يمكن القول بأن الشعر العربى فى جملته قد استمد فى تجديده فى تلك الحقبة من الشعر الأوربى شيئاً يذكر ، وإن كان الشعراء قد استفادوا على وجه عام ثقافة العصر الحديث . ولعل ذلك لأن الأمة العربية التى رحبت كل الترحيب بترجمة ألوان شتى من أدب الغرب ونتاجه الفكرى ، لم ترحب كثيراً بترجمة الشعر الغربى ، وإذا حاولنا أن نتعرف السر فى ذلك وجدناه فى ناحيتين : الأولى صعوبة ترجمة الشعر من لغة إلى لغة ، فالقصائد تفقد فى اللغة المترجمة إليها إيقاعها وموسيقاها وما يكمن فيها من خصائص

التعبير وإيحاءاته ، والجمال الفنى فى الشعر مرجعه إلى الإيقاع والموسيقى وخصائص التعبير والإيحاء . والناحية الأخرى للعزوف عن ترجمة الشعر الأوربى إلى اللغة العربية أن الشعر العربى عريق فى تقاليده وسماته ، وأنه أصيل فى تناوله للمشاعر والخلجات على أوسع نطاق ، وأن لغته قوية متقنة فيها الرقيق الرهيف ، وفيها الجزل المتين ، وأن الشعراء العرب على تعاقب العصور قد مرنوا على الأداء الشعرى وبرعوا فيه ، وأنهم قد تفننوا فى موضوعاته، فلم يدعوا وصف الطبيعة ولا الانطلاق مع أهواء النفس ، ولا تلمس مظاهر الجمال فى المعانى والصور ، ولا التعمق فى فلسفة الحياة ، ولا تصيد أسرار الحكمة ، ولا تمثيل الغرائز والأخلاق ، ولا الكشف عن تجارب البشرية . ولذلك لم تكن للشعر الأوربى سوق رائجة عند القارىء العربى ، بل إنه لم يكن لشعر غير عربى أية حظوة عنده ، إلا ما كان لتلك المقطعات التى سميت « رباعيات الخيام » . وربما كانت العلة فى حظوتها أن روحها قريب من الروح الشرقية التى يتسم بها أدب العرب ، أو أن ترجمة هذه الرباعيات شعراً كانت أقرب إلى التأليف منها إلى الترجمة فى اللسان العربى .

ويظهر أن اعتزاز الأمة العربية بمجد الشعر العربى هو الذى قضى حتى الآن على مختلف المحاولات التى أريد بها مجانبة الأوضاع

والأشكال المتوارثة للشعر العربي . ومما لاشك فيه أن القارىء العربي لم يأنس بتحرير الشعر من الوزن والقافية ، ولم يرحب كذلك بالشعر المنثور ، أو بالشعر المرسل . وربما كان ذلك لأن أوزان الشعر وقوافيه لم تكن في أول نشوئها وليدة صنعة أو زخرف اتخذه الأدباء في عصور المحسنات البيانية والتزاويق اللفظية ، بل كانت هــــذه الأوزان والقوافي في قصائد الشعر العربي وليدة الفطرة الإنسانية في مناجاة النفس على رحاب الصحراء الطليقة ، وتحت سمائها الدائمة الصحو والإشراق . ولذلك وجد فيها القارىء العربي ـ من بعد ـ استجابة لما تهفو إليه نفسه من إيقاع موسيقي ينسجم مع العاطفة والوجدان ، ومن ثم استمسك بهذه الأوضاع الشعرية ، لأنه استطاع بما فيها من مقاطع أن يلمح تلك الجمل التي تصور العواطف والنزعات والأحاسيس . فكأن هذا الشعر العربي يجعل من كل قارىء مرتلاً له موسيقيا بلا أداة ، إذ يجد في أوتار الأوزان والقوافي والمقاطع رنين الأنغام وإيقاع الألحان التي تهز نفسه فتحرك ما يكمن فيها من شجو ، وتواتيها بما تهفو إليه من طرب .

وليس معنى هذا أن نغض من شأن التجديد الذي لحق الشعر العربي الحديث ، فقد تناول من الأنواع الأدبية ما لم يكن يتناول من قبل ، وقد اتصل بمختلف المذاهب الفنية عن قرب أو عن بعد ،

وبذلك يمكن القول بأن الاتجاهات الفكرية والثقافية والأدبية التى تأثر بها الجيل الحديث من جانب الغرب قد كان لها صدى ودوى فى تطوير الشعر العربى ، وقد ظهرت آثارها فى نتائج الشعراء .

ويكفى أن نشير إلى أن « شوقى » شاعر العصر الحديث قد أنشأ المسرحية الشعرية الراقية فى ديوان الشعر العربى ، إذ أخرج « عنترة » و « مجنون ليلى » و « قمبيز » و « مصرع كليوبترة » و « على بك الكبير » وغيرها ، وهى مسرحيات تجمع إلى مهارة النظم ، وروعة الأخيلة الشعرية ، وتنويع الأوزان والقوافى بحسب المعانى والمواقف ، حبكة فنية لها قيمتها ، وحواراً روائيا خلابا ، إلى جانب قدرة الشاعر على تمثيل المواقف التاريخية ، وتصوير الشخصيات على نحو مقبول ، وتعليل التصرفات والأحداث تعليلا لا يخلو من سلامة المنطق ، وموافقة الطبع البشرى . وعلى الرغم من أن هذه المسرحيات كانت فتحا جديداً فى الشعر المسرحى ، وشقا لأفقه فى الأدب العربى ، فإن تلك البواكير توافر لها الحظ من النضج والإيناع . و « شوقى » هو الذى مهد الطريق للشعراء من بعده كى يتابعوا إثراء الشعر العربى بذلك اللون من المسرحيات الشعرية . وقد تفوق من بينهم الشاعر « عزيز أباظة » الذى اتخذ نهج «شوقى» إماما له : فأخرج

« قيس لبنى » و « العباسة » و « الناصر » و « شجر الدر » وغيرها من روائع المسرحيات التى عقدت له لواء الإمارة الشعرية فى هذا الميدان .

وكان من ظواهر التجديد فى الشعر محاولة تطويع القصيدة العربية للتعبير الإيحائى وفق مذهب الرمزية فى الأدب الفنى، ويتميز هذا اللون من الشعر بدقة الفكر ، وعمق التأمل ، والتمرد على الظاهر من الأوصاف ، والمطروق من المعانى ، والمبذول من الأغراض ، ففى هذه القصائد الرمزية تصيد للباطن مما يعتمل فى النفس ، وما يكمن وراء الحس ، حيث تتشابك الانطباعات وتتداخل ، وأداء ذلك أداء رمزيا دون تصريح ، وذلك بالجنوح إلى الأطياف والظلال ، والاعتماد على النغم الشعرى الرفاف . ويعتبر الدكتور « بشر فارس » بين من مارسوا هذا اللون أكثرهم فهما له ، وإيمانا به ، وتمجيداً لمنزلته بين مذاهب التعبير الشعرى .

١١

وإذا كانت المعاهد التعليمية المختلفة قد قامت بقسط كبير فى تثقيف الجيل الذى اضطلع بأعباء النهضة الحديثة، وإذا كانت حركة التأليف والنشر قد غذت تلك الجهود التربوية فى تنشئة الجيل وإمداده بالوعى العلمى والثقافى، فإن هناك الصحف اليومية والمجلات

الأسبوعية والشهرية التي يرجع إليها أكبر الفضل في تثقيف الجمهور العام وإروائه من مناهل العلوم والفنون والآداب على تباين مصادرها الشرقية والغربية ، وعلى اختلاف ألوانها القديمة والحديثة .

كانت الصحافة وسيلة ناجحة للتنوير والتوجيه ، وذلك ليسرها على الكاتب والقارىء معا ، فالكاتب يجد فيها ميدانا قريب التناول للتعبير عن رأيه ، ونشر ما تجود به القريحة ، وبسط ما يهدى إليه البحث والدرس ، إذ ليس الطريق ممهدا أمام كل كاتب لإظهار ذلك في كتاب يطبع . والقارىء كذلك لا يتعذر عليه أن يحصل على صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية أو شهرية يستمتع فيها بألوان ثقافية مختلفة ترضى شتى الأذواق ، وتلائم شتى المستويات .

وقد تعددت الميادين الصحفية ، بين دينية وعلمية واجتماعية وأدبية وفنية ، ولا يستطيع باحث في مصادر الاتجاهات الأدبية للعصر الحديث أن ينسى الأثر الكبير الذى أحدثته في رسم تلك الاتجاهات المجلات الشهرية والأسبوعية ، كالمقتطف والهلال والمنار والهداية الإسلامية والزهور والسفور والسياسة الأسبوعية ولغة العــــرب والمشرق والجديد والحديث والمجلة الجديدة والرسالة والثقافة وعشرات غيرها ، ولا الصحف اليومية كالأهرام والجريدة واللواء والمؤيد والبلاغ وسواها .

إن هذه المجلات والصحف كانت فى ذلك الزمن بمثابة جامعات منتظمة ، تتطاير منها المعارف المبسطة ، والآراء الجديدة، والأفكار المتحررة ، والتوجيهات الثقافية ، والآثار الفنية ، على اوسع نطاق. وكثير من رجال الفكر والأدب كانت ينابيعهم فيما اكتسبوا من علم ومعرفة واطلاع هى الصحف والمجلات أكثر مما كانت ينابيعهم معاهد تعلموا فيها أو كتبا تدارسوها ، ولاشك فى أن الصحافة يومئذ كانت تسد النقص والحرمان الذى يشعر به المجتمع الشرقى من ناحية التعليم الجامعى الذى كان مفقودا أو محدود المجال .

وهذه الصحافة هى التى استطاعت أن تتجه بأسلوب الكتابة اتجاها يطوعها للتعبير عن كل ما يتصل بالحياة الفكرية، والكفاح الاجتماعى ، وتبسيط العلم والمعرفة للجمهور العام .

وقد استفادت بذلك اللغة العربية مرونة وسلاسة وقدرة على الأداء السهل السائغ الدقيق الحافل بالمعانى والأغراض .

وكذلك مما يذكر للصحافة أنها هى التى ازدهر فى حقلها ذلك الفن الكتابى الذى أطلق عليه اسم « المقالة » ، فكانت أشبه بالرئة التى تعين على التنفس فى يسر ، ووجد الكتاب والأدباء فيها مجالا للإفصاح عن خواطرهم والتعبير عن أفكارهم ، وأصبحت المقالة غذاء سهل الإعداد على الكاتب ، سهل الهضم للقارىء . وبلغ من

خطر « المقالة » أن صارت مصدراً للتأليف ، وكثير من أمهات الكتب الأدبية العصرية إنما هى مجموعة «مقالات» . ولقد أدركت « المقالة » ذروتها الفنية على أقلام أدباء وكتاب أتقنوا صوغها وأحسنوا عرضها ، وفى مقدمتهم «لطفى السيد» فى مقالاته التى جمعت فى كتابه « المنتخبات » و « التأملات » ، والدكتور «منصور فهمى» فى مقالاته التى جمعت فى كتابه « خطرات نفس » ، و « عبد العزيز البشرى فى مقالاته التى جمعت فى كتابه « المرآة» وكتابه «المختار» وكتابه « قطوف » ، وكذلك « المنفلوطى » فى « النظرات » ، و « العقاد » فى « الفصول » وغيره ، و « المازنى » فى «قبض الريح» وسواه ، و « أحمد أمين » فى « فيض الخاطر » ، و « الرافعى » فى « وحى القلم » و « الزيات » فى « وحى الرسالة » ، وأمثال هؤلاء كثير .

١٢

ويعتبر الربع الأول من القرن العشرين فى حياتنا الأدبية مرحلة حرث وتخطيط وإلقاء للبذور المختلفة ، وتعهد لها بالسقيا ، وتجربة لنباتها فى حقول الأذهان . فكانت هناك نهضة إصلاح دينية تعالج تنقية المعتقدات من الخرافات والأوهام ، وتصحيح الفهم لروح التدين وسلطانه على المجتمع السليم . ولا ننسى فى هذه الناحية فضل

الرائد الأول « جمال الدين الأفغانى » ، وحامل الشعلة من بعده « الشيخ محمد عبده » ... وكانت هناك أيضاً نهضة لإحياء الثقافة العربية القديمة وتحقيق التراث الذى تركه أعلام الفكر والأدب فى الحضارة الإسلامية، وقد تولى إذكاء تلك النهضة وحمايتها من أن تقضى عليها الدعوات التجديدية المتطرفة طائفة من أعلام البحث والتحقيق. أمثال : «أحمد تيمور» و «شكيب أرسلان» و «محمد كرد على» ... وكانت هناك أيضاً نهضة علمية تحاول الخروج بالتعليم من نطاق إعداد موظفين محدودى المعرفة إلى آفاق البحث الحر والمشاركة فى العلم فى ميادينه الرحبة التى جاءت بها الحضارة الحديثة . وقد تجلى مظهر هذه النهضة فى إنشاء « الجامعة الأهلية » التى أصبحت فيما بعد هى « الجامعة المصرية » الرسمية . وكانت هناك أيضاً نهضة تثقيفية عامة تجلت فى التصانيف المختلفة وفى المجلات والصحف اليومية المتعددة ، فرأينا مثلا « شبلى شميل » يبشر بنظرية التطور ، و « يعقوب صروف » يغذى القارىء العربى بمادة علمية مبسطة ، و « لطفى السيد » يوجه الأفكار إلى الأسس التى تتوافر بها تربية الفرد والجماعة . ومن هذا كله شاعت فى الأمة روح علمية منهجية عالية فى مستوى البحث والدرس ، تتناول مشكلات الحياة وأوضاعها وما يتحقق به التقويم والتجديد والإصلاح ، كما شاعت

فى الوطن العربى روح استقلالية تنفر من العبودية والتبعية ، وتحاول إبراز الشخصية ، وتنشد التحرر والهيمنة على أجهزة الحكم وتوجيهها وجهة تلائم منازع النهوض ، وأصبح الأسلوب الكتابى الذى يعبر عن هذا كله أسلوبا واقعياً زاخرا بالموضوعات الوثيقة الصلة بأعماق المجتمع ، المصورة لآماله وآلامه ، وأخذ الكتاب يترفعون عن الزخارف والمحسنات اللفظية ، ويأبون الصنعة والتكلف فى التعبير ، ويبرأون من الإغراق فى الأخيلة التافهة ، ويتخلصون من الدوران حول الأغراض المكررة المبتذلة المحصورة فى حدود من الأفكار العائمة والعلاقات الفردية السطحية .

١٣

وقد التقت هذه العوامل مجتمعة مع فئات من أبناء الأمة ثقفتهم معاهد تعليمية أجنبية قامت فى أرجاء الوطن العربى، وفئات أخرى من الشباب الذين عادوا من أنحاء الغرب بعد أن اغترفوا من لغاتها ومن ثقافتها ما اغترفوا ، وفى الوقت نفسه كان هناك « الأزهر » و « دار العلوم » وغيرهما من معاهد تعمل على حفظ اللغة العربية وإحياء علومها المتوارثة، وتقيم منها سداً منيعاً للاحتماء من هجمات الأفكار المتطرفة فى الدين والأدب والاجتماع ، وكان اجتماع العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية والتعليمية على هذا النحو ،

وتباين المنازع بين المفكرين وحملة الأقلام يوم ذاك ، إيذانا بنشوب معركة «القديم والجديد» بين الذين يؤمنون بالثقافة العربية من ناحية ، والذين يؤمنون بالثقافة الأوربية من ناحية أخرى .

ولعل روح النهضة ، والخروج من هذا السبات الطويل الذى عاشت فيه بلاد العروبة ردحا من الدهر ، وتفتح الأعين على حضارة غربية ساطعة الأضواء تبهر الأنظار — لعل ذلك كله أشعر الرأى العربى العام بما يسميه علماء النفس « مركب النقص » ، وكان لذلك أثره فى كل من حزب اليمين وحزب اليسار بين قادة الفكر فى ذلك العصر .

فالمحافظون فى الصف الأيمن دفعهم «مركب النقص» إلى الخشية من هذه الأمواج الدافقة التى اندفعت إلى الشرق من جانب الغرب تحمل حضارة جديدة فى كل شأن من شئون الحياة ومرافقها الاجتماعية ، فانبعثوا يدعون إلى المحافظة ، ويحذرون من التهافت على البريق الخلاب ، حتى لا يطغى من ورائه دفق الأمواج على كل مقومات الأمة من عقائد وتقاليد وتراث عقلى وأدبى ، فيصبح العربى طوعا لهذا الطغيان غربيا فى كيانه ووجدانه ، إذ تفتنه مدنية الغرب بلألائها ، وتجذبه نحوها ، فلا يبقى له من وجوده الموروث أثر .

والمجددون فى الصف الأيسر دفعهم « مركب النقص » أيضاً إلى الحملة على كل قديم ، والإزراء بكل موروث ، إذ هالهم أن تتخلف الأمة عن ركب الحضارة الجديدة هذا التخلف البعيد ، وسمت هممهم إلى ملاحقة الركب ، فأغراهم ذلك بأن ينادوا بنبذ كل ما صاحب الأمة فى عهود تخلفها من ثقافة جامدة ، ونظريات عتيقة ، لم تعد فى نظرهم تصلح لعصر البعث والإحياء ، بل لقد كانوا يحسبون أن تلك الثقافة وهذه النظريات هى علة التخلف والضعف الذى منيت به الأمة ، وهى التى عوقتها عن التقدم والنمو والازدهار .

ولقد كان لمركب النقص الذى شعر به كل من الحزبين المتباينين فى ميدان الفكر ، أثره البالغ فى إنعاش حركة الأدب ، وإذكاء نشاط الفكر ، والتمرس بطرائق النقد ، ولئن دلت معركة القديم والجديد فى هذه المرحلة من الحياة العقلية بين أنصار المحافظة والدعاة إلى التحرر على شىء ، إنها لتـــدل على أن الشعب فيه حياة وفيه انتفاضة وفيه يقظة ووعى ، بيد أن ذلك كان يختلف اتجاهات وميولا وآراء بحسب اختلاف ينابيع الثقافة والعقلية للأمة فى تلك المرحلة التى لم تتوحد فيها مناهج التربية والتعليم . وإنما كانت معاهد العلم والدرس متشعبة بين وطنية وأجنبية ، بين شرقية وغربية ، بين

جامدة ومتحررة ، تكاد فى تشعبها تتناكر فى الطابع والروح .

ولا يسعنا الآن إلا أن نحيّي هذه المعركة التى دارت بين المحافظين والمجددين ، فلن تبتلى أمة بأسوأ من الخمول والسكون ، حيث لا تفكير فى جديد ، ولا نزاع على رأى ، ولا دفاع عن مذهب ، ولا موازنة بين موروث ومستحدث من نتاج القرائح والعقول والأذواق .

ومما لاشك فيه أن هذا الاختلاف المذهبى والصراع النقدى كان خيراً وبركة على الأدب فى توجيهه وجهة سديدة ، إذ أنه أفاد المحافظين والمجددين جميعاً ، فى كبح ما بنفوسهم من جماح التطرف والاستئثار بالسلطان على العقول والأفكار ، وفى تجنيبهم مزالق التفريط والإفراط ، فقد كان لاصطراع المـــذاهب والأهداف مايشبه التلاقح والتطعيم ، ولذلك انتهت هذه المذاهب والأهداف إلى شىء من الاعتدال والتصالح والتوفيق ، بفضل مادار بين أشياعها وخصومها من تجاذب ونزاع .

١٤

وفى العهد الذى كانت فيه تتجمع الأسباب التى هيأت الأذهان من بعد لخوض تلك المعركة الحامية ، معركة القديم والجديد ، فى ميدان الفكر والرأى والمعتقدات ، كان هنالك نزوع عند ناشئة

الأدباء إلى توجيه الأدب نحو الاستجابة للحياة الاجتماعية المتطورة، والتعبير عن الطابع الوطني للأمة في مختلف نوازعها ، في أنماط جديدة تستوحى في صورها الأدب الأوربي الحديث ، وكانت « القصة » بمعناها الفني قبلة الأنظار لبلوغ ذلك الهدف .

وقد سجل التاريخ في العقد الأول من القرن العشرين للدكتور « محمد حسين هيكل » أنه وهو يومئذ شاب نازح إلى « فرنسا » يتلقى فيها دراسة الحقوق ، أجرى قلمه بكتابة قصة « زينب » التي تعد باكورة القصص الفني في الأدب العربي ، وقد احتوت وصفاً للريف المصري يتراءى من خلال أحداث القصة وشخصياتها ومشاهدها .

وكذلك يسجل التاريخ في تلك الفترة لشقيق « محمد تيمور » أنه لما عاد من « فرنسا » التي ذهب إليها حينا لدراسة الحقوق أيضاً بدأ يعالج كتابة القصة القصيرة والمسرحية ، ويدعو إلى أدب مصري الملامح ، مستكمل للعناصر الفنية ، يعرض ألواحا تصور بيئتنا القومية ، بما يعتلج فيها من مشاعر وأشجان .

وعلى نهجه تتابعت أقلام الجيل الصاعد من الكتاب ، فتألقت مدرسة الأدب القصصي الجديد ، وكان من روادها « شحاته عبيد» و « عيسى عبيد » و « محمود طـــاهر لاشين » و « يحيي حقى »

و « إبراهيم المصرى » . وكاتب هذه السطور « محمود تيمور » .

ومن الظواهر التى لابد من التنويه بها فى هذا الإنتاج القصصى الفنى الوليد أنه قد تميز فى لغته بشىء من الحرية والانطلاق ، فلم يكن التعبير فى القصص ملتزماً كل الالتزام أوضاع اللغة فى تقاليدها المتوارثة ، وما تتزين به من زخرف لفظى ومحسنات بلاغية ، وإنما كان أدباء الطليعة القصصية حراصاً على أن يستكملوا مقومات الصيغة المحلية باستخدام اللغة الدارجة ، كثيراً فى الحوار ، وقليلا فى الوصف . وكان أولئك الرواد يحاولون أن يصطنعوا لأنفسهم أسلوباً كتابيا تتوضح فيه شخصية الكاتب ، ولا يكون محاكاة وتقليداً للأساليب الكتابية التى تلتزم تلك الأوضاع القديمة .

١٥

وبعد طبقة الرواد التى كانت تشق الطريق لوضع أساس القصة الفنية فى الأدب العربى الحديث ، تزاحمت عشرات الكتاب تعالج التأليف القصصى ، وماهى إلا أن لمع فى الأفق القصصى كاتب نابغة يجمع إلى الثقافة العربية الأصيلة ثقافة أوربية جامعية ، ذلك هو الدكتور « طه حسين » ، حين شرع يكتب سيرة شخصية مكتملة العناصر الفنية للقصص الرفيع ، وهى سيرته هو منذ طفولته . فكان لتلك السيرة التى حملت اسم « الأيام » صدى بعيد فى الأدب الجديد .

وفى هذه الحقبة رأينا كاتبا أديبا من أقطاب نهضة القلم هو الأستاذ « إبراهيم عبد القادر المازنى » يرسم لنا صوراً قصصية تمتاز بالحيوية والطرافة ورشاقة العبارة وظرف الحديث . ومن هذه الصور مايتخذ شكل أحداث ينتحلها الكاتب لنفسه أو يحملها على من يعايشه من الأهل والصحب ، فيكشف فيها زوايا فكهة من جوانب الحياة وشئون الناس ، وقد احتوى هذه الصور كتابه « خيوط العنكبوت » و « صندوق الدنيا » وغيرهما . ثم كتب القصة الطويلة فى ذلك المنحى الأنيس الذى عرف به ، فقرأنا له « إبراهيم الكاتب » وغيرها ، ولا يغفل الناقد للأستاذ « المازنى » أنه كان على فصاحة أسلوبه وإبداعه البيانى يحاول المزج بين العامية والفصحى فى حصافة ولباقة وحسن اختيار .

وبينما كان كتاب القصة يومئذ يزاولونها على تفاوت فى درجة الإتقان ، وتباين فى فهم المعايير الفنية للأداء القصصى — سطع فى سماء الأدب العربى نجم قوى اللألاء ، ذلك هو الأستاذ « توفيق الحكيم » ، إذ راع عصره بأدب مسرحى وقصصى يدل على معرفة تامة بأصول فن القصة وأوضاعه السليمة ، إلى أصالة فى الفكر ، وعمق فى الثقافة ، ورهافة فى الحاسة الفنية للتصوير ، وحنكة فى المعالجة والتحليل ، وروعة فى الخيال ، وبراعة فى إدارة الحوار .

وإذا نحن نقرأ له «أهل الكهف» و «شهر زاد» و «عودة الروح» وما إليها من تلك البدائع الفنية التى انطوت على قيم فكرية واجتماعية وأدبية ليست محدودة بحدود إقليمية ضيقة ، ولكنها تستطيع أن تحتفظ بمستوى ملحوظ فى سوق الأدب العالمى .

وبهذه الجهود القصصية التى توجتها روائع الأدباء الأعلام استقرت مكانة القصة العربية بين فنون الأدب العربى المتوارثة ، من «مقامة» أو «مقالة» أو «رسالة» أو «قصيدة» ، بل إن القصة ظلت تزاحم تلك الفنون حتى وصلت إلى الصدر ، فإذا القصة عنوان الأدب الآن .

١٦

حقاً لقد استهوت القصة صفوة الكتاب والمفكرين ، وتعددت على أقلامهم مناحيها وأساليبها ، فاكتسب الأدب القصصى الحاضر تجارب وخبرات من مزاولات الأدباء له ، ومن ثمرات الرقى العقلى والثقافى والاجتماعى للأمة العربية التى تثب وثبات بعيدة فى سبيل استكمال النضج والوعى .

ومما يؤثر أثراً قوياً فى تقويم الفن القصصى فى الأدب العربى مواصلة الترجمة على أوسع نطاق لأكبر الأعمال القصصية فى مختلف اللغات الأجنبية . فالقصص الإنجليزى والقصص الفرنسى والقصص

الروسى وغيره من قصص الآداب العالمية يتوافر فى اللغة العربية ويتزايد يوما بعد يوم .

كذلك مما كان له أبلغ الأثر فى إنضاج فن القصة العربية انتشار الدراسات والمؤلفات التى تتناول علم النفس ، فقد كانت هذه الدراسات والمؤلفات سبيلا إلى تنمية الوعى الكتابى ، والدقة فى التحليل النفسى ، بالوقوف على نظريات الفلاسفة والمفكرين المحدثين فيما يتعلق بالعقل الباطن ، وتشابك الغرائز ، وصراع النزعات ، وسلطان ذلك على البواعث الظاهرة من سلوك البشر .

ومن الفنون القصصية التى نشأت حديثاً فى الأدب العربى : فن قصص الأطفال ، ولا تذكر نشأة هذا الفن إلا ذكر معها اسم « كامل كيلانى » الذى شرع منذ ثلث قرن يقدم قصصاً مقتبسة أو مخرجة إخراجا عربياً جديداً من مصادر شتى ، بينها مصادر عربية مثل « ألف ليلة » وقصص « جحا » . وإلى جانب ذلك قدم ترجمات مبسطة ملائمة لمدارك النشء من روائع « شكسبير » وغيره من أعلام الأدب الأوربى ، وقدم أيضاً نماذج كثيرة من الأساطير .
وإذا كان الميدان اليوم حافلا بأفانين من أدب الأطفال ، مؤلفة أو مترجمة أو مقتبسة ، لعدد كبير من رجال التربية والأدب والفكر ، فإن « كامل كيلانى » يعتبر الرائد لهم فى أدبنا العربى الحديث .

١٧

وإلقاء نظرة عامة على أدبنا العربي الحديث فيما سما إليه من تجديد، ومن مسايرة للأفكار العصرية في فهم رسالة الأدب ومهمة الأديب، ترينا أن أدبنا هذا قد مر أول أمره بعهد حاول فيه تعصير اللغة، بالاقتصار على الألفاظ الحية المأنوسة في الاستعمال، وحاول فيه تعصير الأسلوب بإخلائه من التزاويق والمحسنات، وحاول فيه تعصير موضوعه بجعله أدبا محليا يستجيب للبيئة من حوله، ويعبر عنها. ولكنه في هذا العهد كله كان معنيا أيما عناية بالدوران حول تصوير العادات والتقاليد التي هي وليدة التخلف والجهالة وطغيان حكم الاستبداد، ومن ثم تنازع الكتاب مشكلات محلية موقوتة، مثل مشكلة الأخذ بالثأر، ومشكلة تحكم الأهلين في زواج البنت، ومشكلات التزمت في الأحكام الأخلاقية وفرضها على المجتمع، والمشكلات العاطفية في مجتمع تسري فيه روح الحجاب والحرمان الجنسي — فكان الأدب يصـــور ذلك كله، متخذاً له في أغلب الأحوال هدفاً أخلاقياً هو الانتصار للفضيلة وإعلاء كلمتها حين تصير الأمور إلى الغايات، وتنتهي المقدمات إلى النتائج. ولا شك في أن النتاج الأدبي في ذلك العهد كان — طوعا لتلك الفروض والقيود — بادي الضعف من الوجهة الفنية البحتة، إذ كان يفقد

حرية الاستلهام وحرية الأداء ، بيد أننا لا ننكر أن الأدب يومئذ قد أدى للأمة رسالة إصلاحية بعثت عليها الظروف والملابسات .

وقد شغل الأدب بهذه الاتجاهات المحلية الموقوتة ، والنقد الأخلاقى المحدود ، ومحاولة الإصلاح الاجتماعى فى ذلك العهد ، عن لمس الأهداف الإنسانية العامة ، والمثل العليا فى نطاقها الرحيب ، والمشكلات الدقيقة والمشاعر الأصيلة الناجمة عن الغرائز البشرية الثابتة .

١٨

على أن هذا العهد لم يلبث أن تقلص ، ليبدأ عهد جديد يرتقى فيه التعبير عن المشكلات الاجتماعية ، وعن البواعث الكمينة للتقاليد والعادات ، وعن الأثر البعيـــد للملابسات الاقتصادية والعمرانية فى المجتمع المصرى ، وهكذا انتقل الأدب من الصور الهزيلة فى قصص « عبدالله النديم » مثلا إلى الصور الفنية الرفيعة فى قصة « المستضعفين فى الأرض » للدكتور « طه حسين » ، ومن الصور البسيطة « لمحمد المويلحى » فى « حديث عيسى بن هشام » إلى الألواح النابضة فى « يوميات نائب فى الأرياف » « لتوفيق الحكيم » ، ومن نقدات « حافظ ابراهيم » الوعظية فى « ليالى سطيح »

إلى المنحى العصرى فى قصص «يحكى أن . . .» «لمحمـــود طاهر لاشين» .

١٩

ويجمل بنا أن نشير إلى أن اللغة التى يكتب بها الأدب الحديث هى العربية الفصحى ، وقد أخفقت كل المحاولات التى أريد بها تسويد اللهجات العامية فى البلاد العربية ، وجعلها لغة كتابة كما هى لغة تخاطب وحديث . هذا مع أن اللهجات العامية أسهمت فى التعبير الأدبى فى الأغانى والأناشيد والأزجال والحوار القصصى والمسرحيات المحلية ، ونبغ فى أدب اللغة العامية أدباء مثل الزجال «بيرم التونسى» والشاعر «أحمد رامى» ، إذ قدموا إنتاجا فيه حرارة وحيوية ، وفيه سمو فنى وفيه استلهام من البيئة الشعبية ، واستجابة لما فيها من مشاعر وأحاسيس . ولكن هذا الأدب العامى يقتصر الآن على المسرحيات المحلية ، والتمثيليات السينمائية والإذاعية وما إليها من أغنيات وأناشيد ، وكاد يمحى من حوار القصص المكتوب بالفصحى . ولعل انحصار الأدب العامى فى هذا النطاق مرده إلى أن هذا الأدب لم يستطع أن تظهر فيه عبقرية بيانية تفرض نفسها لتزاحم بيان الأدب الفصيح . وتكاد الدلائل كلها تجمع على أن المستقبل للفصحى ، وأن الفرص

التى أتيحت من قبل لإحياء اللهجات العامية فى نطاق ينفسح أو يضيق ، تقل الآن وتتزايل بسبب انتشار التعليم والصحافة والإذاعة ودعم وسائل الاتصال بين البلاد العربية ، وهيمنة الوعى العام لتوحيد اللغـــة والحد من اختلاف اللهجات فى الوطن العربى الكبير .

٢٠

وأما أدبنا الحديث فى حاضره الذى يتوثب إلى الأمام بخطا فساح ، فإنه زاخر بموجات فكرية تمدها ضروب من الثقافات المتنوعة ، وهى تستند إلى تأييد ورعاية من سلطان الدولة بما تنشىء من هيئات ومجامع ، وما تنظم من جوائز ، وما تمهد من وسائل التفرغ والتشجيع والتقدير .

وإن هذه الموجات الفكرية لتستهدى بنظرات نقدية منهجية حديثة ، وتكاد «البيئة الجامعية» المتنورة فى ذوقها الفنى ومستواها الرفيع ، تستأثر بالنشاط فى شتى فنون الأدب ، وتشيع فيها روح السمو والتجديد .

وفى وسعنا أن نتبين فى هذا الأدب الحديث الذى نطالعه الآن صباح مساء اتجاهات واضحة ، وميولا قوية . منها محاولة تعميق النظرة إلى الحياة وإلى النظم الاجتماعية ، وتخليص هذه

النظرة من نطاق المحلية الواقعية المحدودة ، والنهوض بها إلى آفاق الروح الإنسانى الشـــامل ، على أساس من فهم الغرائز البشرية الثابتة ، والمشكلات الاجتماعية الأصيلة ، وأثر ذلك كله فى السلوك العام حين تتلاطم الغرائز ، وتتعاكس تيارات النفوس ، ويتجلى الكفاح من أجل الحياة فى صور متناقضة يلتبس فيها الخير بالشر .

ومن الاتجاهات والميول معالجة تصوير الآلام التى يعانيها المجتمع ، وتمثيل نضاله لتكميل نفسه .

ومنها المشاركة فى الدعوة إلى الأهداف العقلية والاجتماعية الرشيدة ، وهى التى تمثل وجدان الشعوب . وعلى رأسها دعوة الحرية ، والوحدة الإنسانية ، والسلام العالمى .

ومنها العمل على أن يكون الأدب وسيلة من وسائل التربية الاجتماعية للفرد والتوجيه العام للجماعة ، وذلك بتوسيع الخبرة بالحياة ، وإضافة تجربة إلى سلسلة التجارب ، والتبصير بحقيقة المشاعر والتصرفات من طريق التحليل النفسى العميق لمختلف ألوان السلوك .

وثمة منارتان يستضىء بهما الأدب العربى الحديث فى سيره إلى الأمام :

المنارة الأولى : الحرص على الطابع الشرقى ، والاحتفــاظ بالروح العربى ، مهما يكن من استمداد الغذاء والنماء من شتى المصادر الأدبية عند الأمم واللغات .

والمنارة الأخرى : العمل على أن يدخل الأدب العربى ميدان « العالمية » ليكون له مكان مرموق فى قيادة الركب الإنسانى تحت راية الفكر .

عائشة التيمورية

شاعرة الحب والألم ورائدة الأدب
النسوى فى القرن التاسع عشر .
١٨٤٠ — ١٩٠٢ م

- مكانة الشاعرة عند معاصريها .
- إنتاجها الأدبى .
- كيف عرفتها ؟ .
- حياتها .
- شعرها .
- رأى فى غزلها .
- بين « عائشة التيمورية » و « رابعة العدوية » .

— ١ —

مكانة الشاعرة عند معاصريها

لم يظفر اسم نسوى من الجاه وشيوع الذكر فى عالم الأدب خلال القرن التاسع عشر وما استقبلنا من القرن العشرين ، بمثل ما ظفر به اسم السيدة « عائشة التيمورية » ، بل إن الأدب العربى على مدى عصوره لا يكاد يسجل للشواعر فيه من دواوين الشعر إلا ما كان من ديوان « الخنساء » الشاعرة المخضرمة التى عاشت فى العصر الجاهلى وأدركت صدر الإسلام ، ومن ثم كان ظهور ديوان باسم « عائشة تيمور » حدثا له دويه وله صداه فى الحياة الأدبية ، وفجر النهضة يومئذ وليد .

حقا ، لم يفت ذلك معاصريها من أهل الأدب وحملة الأقلام ، فهذا الأستاذ الأديب « سليم بك رحمى » ، يقول فى الحديث عن ديوان التيمورية إبان ظهوره فى أعقاب القرن التاسع عشر :

« إن من تقدم من النساء أقل فضلا ممن يظهرن فى هذا

الزمان ، فإن وجودهن بين أحياء العرب ، أو قربهن من عصورهم ، ساعدهن على قوة الملكة ، وانطلاق لسان البيان . فأما الآن وقد ضرب الجهل بجرانه ، وقوض من العلم أعالى بنيانه ، فمن تظهر بتجديد تلك المعاهد تستحق المقام الأول فى الفخر ، وتغفر بحسنات وجودها سيئات العصر ، مثل صاحبة هذا الديوان ...» .

بل إن ذلك ما دعا الكاتبة النابغة « مى » بعد تألق النهضة ، وقد انصرم ربع قرن على ظهور الديوان ، أن تكتب عنه وعن صاحبته ، فتقول :

« إن اسم التيمورية اسم شجى يحيا بزفراته الحارة المنغومة ، زفرات تناقلتها الأصداء ، يوم لم يكن للمرأة صوت يسمع ، فرسمت من الذاتية النسائية خطاً جميلا حين كانت صورة المرأة سديما محجوبا وراء جدران المنازل وتكتم الاستتار » .

« وإذا قدر للمرأة المصرية أن تلج هذا الباب وتمعن فى المسير كان مرجع الفضل إلى التيمورية التى نشرت أول علم فى الجادة غير المطروقة ، وبكرت فى إرسال الزفرة الأولى حيث كانت تكتم الزفرات . ويوم يسمو الأدب النسائى فى بلادنا ، فيجىء حافلا بحياة فنية غنية ، ستظل أناشيد « عائشة » . تلك الأناشيد الساذجة لذيذة محبوبة . كترنيمة المهد القديمة التى همهمت لنا بها أمهاتنا شجية مطلوبة كشدو القصب القائل :

« إن وراء المشاغل يظل القلب البشرى مثقلا بحنين وظمأ لا يعرفان النفاد ... » .

٢

إنتاجها الأدبي

لقد أتيح للسيدة « عائشة تيمور » أن تدرس وتستكمل حظها من العلم والأدب ، دون أن تلتحق بمعهد خارج المنزل ، حتى أتقنت اللغات الثلاث : العربية ، والفارسية ، والتركية . ونظمت فى هذه اللغات جميعا ما جادت به قريحتها من معان وخطرات فى شتى الموضوعات . ولم تكن براعتها الفنية مقصورة على الشعر ، فقد أسهمت فى صناعة الترسل ، وكانت لها أعمال قصصية ومقالات أدبية واجتماعية ذات بال .

إلا أن هذه السيدة التى استطاعت أن تشق أطباق الظلام ، فى عصر الجهالة والحجاب ، بما اقتبست من نور المعرفة ، لم تدعها ملابسات الدهر تفرغ لإنتاجها لكى تقدمه إلى جمهور القراء ، فحاصرتها أحداث صعاب ، وتوالت عليها فجائع هدت منها الكيان ، وأورثتها اليأس والقنوط . ولولا أن ولدها ألح عليها — وقد جاوزت عصر الكهولة — أن تجمع له ما نظمت من شعر ،

وما كتبت من نثر ، لما أبقت لنا الأيام على شيء من آثار تلك الأديبة الرائدة التي هي طليعة الأدب النسوى فى العصر الحديث .

ولنستمع إلى ما قالته لولدها «محمود توفيق» أحد رجال القضاء لذلك العهد :

« فى استطاعتى أن أنظم الآن شيئا من الشعر ، شكرا لله عز وجل على ما وهبنى من النعم ، أما أشعارى الماضية فقد أحرقتها ، ولا أظن أن فى مكتبتى منها إلا الشىء القليل ، بالعربية والتركية . فأما شعرى بالفارسية فقد كان فى محفظة فقيدتى ، وقد أحرقت محفظتها كما احترق قلبى عليها ، وإنى أهدى إليك ما عندى من الكتب والأوراق ، فاصنع بها ما شئت . وإن رأيتها جديرة بالطبع فاطبعها .... » .

وقد بر الولد بآثار والدته فأظهر منها فى حياتها :

أولا : ديوانها العربى المسمى « حلية الطراز » ، وقد طبع غير مرة .

ثانياً : ديوانها الفارسى التركى ، المسمى « شكوفة » وقد طبع بمصر والآستانة وإيران .

ثالثاً : كتابها القصص الحكمى المسمى : « نتائج الأحوال ، فى الأقوال والأفعال » وقد طبع بمصر وتونس .

رابعاً : كتابها النقدى الاجتماعى المسمى : « مرآة التأمل فى الأمور » ، وقد طبع بمصر .

وتتحدث « التيمورية » عن سبب تأليفها لكتابها القصصى ، فى المرحلة المتأخرة من حياتها ، فتقول :

« لما تلوت أحاديث من قضى من السلف ، ووردت منهل أخبارهم ورود من اغترف ثم اعترف ، وتأملت فى سير الأمم ، وتحققت أن السعد والنحس منوطان بالقدر منـــذ القدم ، وقد شاهدت والله بنفسى صدق هذا الخبر ، وكابدت لسوء حظى فى كهف العزلة ما هو أدهى وأمر ــ دعتنى الرأفة بكل مغبون لقى ما لقيت ، ودهى بما دهيت ، أن أبدع له أحدوثة تسليه عن أشجانه عند تزاحم الأفكار ، وتلهيه عن أحواله فى غربة الديار » .

وهكذا صقلت المحن تلك الأديبة المبكرة ، وأوحت إليها فى أعقاب الكهولة أن تزاول — إلى جانب الشعر — لونا من القصص الحكمى على تلك الأنماط التى كانت متعارفة فى تراث الأدب العربى ، أنماط الأسمار وأحاديث الأخباريين وما إليها من قصص شعبى .

على أن السيدة « عائشة تيمور » دبجت فوق ذلك مقالات وبحوثا نشرت يومئذ فى بعض المجلات والصحف ، كمجلة « الآداب »

وصحيفة « المؤيد » ، وقد اشتهر من تلك المقالات مقال بعنوان :

« لا تصلح العائلات ، إلا بتربية البنات » .

وما كتبته « التيمورية » فى النواحى الاجتماعية ، يكشف عن وعى سباق فى الدعوة إلى تحرير المرأة ، وتمهيد الطريق لكى تسهم فى الحياة العامة . وقد كانت « التيمورية » نفسها مثلا حيا لما كان ينشده المصلحون فى ذلك العهد من أمل فى النهضة النسوية .

٣

كيف عرفتها ؟

أما معرفتى بالسيدة « عائشة تيمور » فقد كان ذلك فى أعقاب القرن الماضى ، وأنا يومئذ صبى جاوزت الخامسة بقليل . كان أبى « أحمد تيمور » يصحبنى إليها ، إلى عمتى ، التى يذكر هو لها فضل تشجيعه وتنمية نزوعه إلى القراءة والاطلاع . وما برحت أذكر وقفاتها عندى ، على سرير مرضى ، تعنى بأمرى وتواسينى فيما أجد من ضـــيق ، وما أقاسى من أوجاع . وليس يبرح مخيلتى طيفها المأنوس ، صبح العيد ، جالسة فى حجرتها ، عليها مهابة ، وفى حركاتها نبل وترفع ، وفى حديثها حنو وتلطف ، تستقبلنا نحن ضيوفها الأحياء الصغار ، فتشغل أيدينا بما لذ من الحلوى ، وما راق

من اللعب ، ثم تمسح على رءوسنا فى فرحة وتحنن ، داعية لنا بعافية موفورة وعمر طويل .

كان « للتيمورية » الشاعرة قلب كبير ، ووجدان مرهف ، يحبب إليها الرفق بكل حى ، بكل شىء ، حتى إنى ألفيتها تعنى بسرب من القطط استأثرت به ، وجعلت لكل قطة حشيّة خاصة بها ترقد عليها ، وما أفتنه منظرا أن كنت أرى « التيمورية » وقد أحاطت نفسها بهذه الصويحبات التى تؤنسها بما لها من مواء وهرير ، ومن مداعبات ومعابثات .

وإنى لأتمثل الآن وأنا فى شيخوختى الواهنة ، تلك اللمسات الوادعة من أنامل عمتى الرقاق ، فأشعر من فورى ببهجة الطفولة وصفائها يعاوداننى ، وكأنى بين يدى العمة أسمع وأرى .

لقد كانت قصائد « التيمورية» باكورة ما قرأت وما حفظت ، فما أنسى يوم أقبل علىّ أبى يدفع إلىّ ورقة خط فيها أبياتا ضبطها بالمداد الأحمر ، وما لبث أن قال لى : « اقرأ » ، فأطعت ، متمهلا فى القراءة ، خشية العثار :

بيد العفاف أصون عز حجابى
وبعصمتى أسمو على أترابى
وبفكرة وقادة وقريحة
نقادة قد كملت آدابى

ولقد نظمت الشعر شيمة معشر
قبلى ذوات الخدر والأحساب
ما قلتــــه إلا فكاهة ناطق
يهوى بلاغة منطق وكتاب
فجعلت مرآتى جبين دفاترى
وتخذت من نقش المداد خضابى
ما ضرنى أدبى وحسن تعلمى
إلا بكونى زهرة الألباب
ما ساءنى خدرى وعقد عصابتى
وطراز ثوبى واعتزاز رحابى
ما عاقنى خجلى عن العليا ولا
ســــدل الخمار بلمتى ونقابى

وواصلت تلاوتى، وعن يمينى أبى يرنو إلىّ ، وهو يصوب الخطأ ، ويشرح الصعب ، ويفيض فى الإبانة والإفهام . وهكذا تلقيت من ذلك الشعر أول قبسة من نور الفضيلة ، وأسبق نفحة من مكارم الأخلاق .

وأذكر أننا — نحن الأشقاء الثلاثة : « إسماعيل » و « محمد »

و « محمود » — كنا فى منصرفنا من المدرسة إلى البيت ، نتخذ من تلك القصيدة السامية فى أهدافها ومراميها أنشودة الطريق ، نتسلى بالترنم بها فى نشوة وابتهاج .

على أنى لا أستطيع الادعاء بأنى فهمت فى صباى من تلك القصيدة التاريخية المشهورة ما تحمل من مغزى اجتماعى عميق له فى تاريخنا القريب صدى بعيد ، ذلك هو ثورة «التيمورية» فى قصيدتها تلك على الروح التقليدية التى كانت تحكم المجتمع المصرى فى هذه الحقبة ، فتجعل من المرأة رهينة بيت ، ودمية خدر ، لامشاركة لها فى علم ولا أدب ولا ثقافة . لقــد عبرت « التيمورية » فى نسج شعرى رقيق عن معارضة حارة لمن كانوا ينادون يومئذ بأن المرأة لم تخلق إلا للزينة ،وللقيام بمهمة الأمومة وما إليها من شئون منزلية ، وأن المرأة لاتستطيع أن تجمع بين الصون والفضيلة وبين ابتغاء الوسيلة لاكتساب المعرفة ، فهتفت «التيمورية » فى قصيدتها بأن الفتاة المتعلمة المتأدبة تدعم بالعلم والأدب شخصيتها ، وتستكمل بهما فضيلتها ، وبأن الصون والعفاف لا يعوقان الفتاة عما تطمح إليه من ثقافة ومن إسهام فى موكب الحضارة ، ولا ضير عليها أن تتخذ من الكتاب مرآتها ، ومن المداد خضابها .

وقد حرص أبى على أن يزودنا فى الحين بعد الحين بمختارات

من شعر أخته «التيمورية» فى أشتات من الأغراض ، وعلى الرغم مما كان لهذه المختارات من مكانة كريمة علىّ ، وأثر بالغ فى نفسى ، فإنها كلها قد تضاءلت وتخلفت يوم جاء أبى إلى علىّ مرثية عمتى لابنتها «توحيدة» التى ماتت فى زهرة العمر ، تلك المرثية التى تقول فيها :

إن سال من غرب العيون بحور
فالدهر باغ والزمان غدور
جاء الطبيب ضحى وبشر بالشفا
إن الطبيب بطبه مغرور
فتنفست للحزن قائلة له :
عجل بيرئى ، حيث أنت خبير
وارحم شبابى إن والدتى غدت
ثكلى يشير لها الجوى وتشير
لما رأت يأس الطبيب وعجزه
قالت ، ودمع المقلتين غزير :
أماه قد كل الطبيب وفاتنى
مما أؤمل فى الحياة نصير

لو جاء عراف اليمـــامة يبتغى
برئى لرد الطرف وهو حسير
أماه قد عز اللقـاء ، وفى غد
سترين نعشى كالعروس يسير
صونى جهاز العرس تذكارا فلى
قد كان منه إلى الزفاف سرور
بنتاه يا كبدى ولوعـــة مهجتى
قد زال صفـــو شانه التكدير
قد كنت لا أرضى التباعد برهة
كيف التصبر والبعاد دهور
قلبى ،وجفنى، واللسان ، وخالقى:
راض ، وباك ، شاكر ، وغفور

أطال أبى جلوسه إلىّ ، وهو يملى علىّ قصيدة الرثاء كاملة ، حتى ملأت صفحتين اثنتين ، دون أن يضيق هو بالإملاء ، ودون أن أجد فى نفسى لذلك ملالة وفى هذه المرة لم يلق أبى صعوبة فى الشرح والإيضاح ، فقد كانت أبيات القصيدة تنساب فى وجدانى انسياباً ، فتبلغ مكامن الشعور والتأثر ، كأنما يبعثها تيار خفى .

أكنت أفقه معانى هذه القصيدة حقاً ؟ لم أكن يومئذ لذلك أهلا ، ولكننى أحببت القصيدة ما وسعنى أن أحب ، وزاد بها

ولوعى يوماً بعد يوم ، إذ أثارت بين جـــوانحى ، جوانح الصبى الغرير ، مشاعر دفينة ، فاتخذت منها لحناً شجياً ، تطيب به نفسى كلما أسمعته نفسى .

بهذا تعلمت من شعر « التيمورية » فى مطلع أيامى أن الأثر الفنى الحق يقدر باستجابة القلوب له ، واستشفاف البصائر إياه ، قبل أن يقدر برجحانه فى موازين العقول والأذهان . فالفن الصادق هو الفن الذى يجد له الناس على اختلاف ألوانهم وتفاوت مداركهم صدى فى الأفئدة وتجاوباً فى المشاعر .

لقد كتبت «التيمورية» قصيدتها هذه بذوب مهجتها التى أدماها الجرح ، فكانت صورة الشعور الحزين ، ولحن الألم العميق ، تردده الإنسانية المعذبة حين تمتحنها الأقدار بالخطوب الجسام .

٤
حياتها

ولدت السيدة « عائشة » فى سنة ١٨٤٠ ، وتوفيت سنة ١٩٠٢ ، وقد جاوزت الستين بقليل .

أما أبوها فهو « إسماعيل تيمور باشا » ، وقد كان من رجال المناصب العليـــا فى مصر بين حكم « محمد على » وحكم « الخديو

إسماعيل » . ولم يكن مجرد رجل إدارة وسياسة ، وإنما كان رجل علم وثقافة ، يجيد ست لغات : هي التركية والعربية والفارسية ، والفرنسية والإنجليزية والإيطالية . وفيما تولاه من المناصب رياسة القلم الأفرنجي في الديوان ، وآخر ما وليه منصب الرئيس العام للديوان الخديوي ، وقد شاع عنه ولعه بالمطالعة ، وشغفه بمجالسة العلماء ، وحرصه على اقتناء الكتب النفيسة شراء واستنساخا ، ويروى عنه أنه قال : « إني لأستحي أن يقع في يدي كتاب ولا أطالعه » . وقد أنشأ في حياته مكتبة خاصة له تفرقت بعد موته . فلم يبق منها إلا فهرس الأسماء . ومما ذهبت به الريح مع أوراقه كتاب عني بتأليفه ، وأودعه خلاصة مطالعاته .

وأما والدة السيدة « عائشة » فجركسية الأصل . أرادت لابنتها نشأة كنشأة أترابها من فتيات القصور . تحسن فن التطريز ، إلى غيره مما يتصل بشئون البيوت الكريمة المطبوعة في هذا العهد بطابع المحافظة ، المضروب عليها حجاب .

وآنست الصبية «عائشة» في فطرتها نزوعاً إلى التعلم ، وعزوفا عن ممارسة الفنون النسوية المنزلية . ومن ثم قام بينها وبين والدتها صراع . فالصبية تريد الاستجابة لتلك الفطرة ، والوالدة تأبى على ابنتها أن تخرج على تقاليد الأسرة . وقد صورت لنا السيدة

«عائشة» فيما بعد ذلك الصراع تصويراً دقيقاً فى قولها :

« فلما تهيأ العقل للترقى ، وبلغ الفهم درجة التلقى ، تقدمت إلىَّ ربة الحنان والعفاف ، وذخيرة المعرفة والإتحاف ، والدتى ، تغمدها الله بالرحمة الغفران ، بأدوات النسج والتطريز ، وصارت تجد فى تعليمى ، وتجتهد فى تفهيمى ، وأنا لا أستطيع التلقى ، ولا أقبل فى حِرَف النساء الترقى ، وكنت أفر منها فرار الصيد من الشباك ، وأتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك ، فأجد لصرير القلم فى القرطاس أشهى نغمة ، وأتخيل أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة ، وكنت ألتمس من شوقى قطع القراطيس وصغار الأقلام ، وأعتكف منفردة عن الأنام ، وأقلد الكتاب فى التحرير ، لأبتهج بسماع هذا الصرير ، فتأتى والدتى وتعنفنى بالتكدير ، فلم أزدد إلا نفوراً ، وعن صنعة التطاريز إلا قصورا ، فبادر والدى تغمد الله بالغفران ثراه ، وقال لها : دعى هذه الطفيلة للقرطاس والقلم ، واحذرى أن تكثرى من الكسر فى قلب هذه الصغيرة ، وما دامت ابنتنا ميالة بطبعها إلى المحابر والأوراق ، فلا تقفى فى سبيل ميلها ورغبتها ، وتعالى نتقاسم بنتينا ، فخذى «عفت» وأعطينى «عائشة» . وإذا كان لى من «عائشة» كاتبة وشاعرة ، فسيكون ذلك مجلبة الرحمة لى بعد مماتى .

لبثت الصبية «عائشة» فيما بين السابعة من عمرها والثالثة عشرة منكبة على الدرس ، يجلب لها والدها من الأساتذة المعاصرين من يلقنونها العلوم واللغات .

على أن هذا الوالد العطوف ، على الرغم من سعة أفقه ، وفسحه مجال التطور لابنته،لم يكن يستطيع التخلص من طابع المحافظة جملة . ولم يكن يملك الثورة على التقاليـد دفعة ، فإن السيدة « عائشة » تقول :

« لم يكن أبي يأذن لى بالخروج إلى مجالس الرجال ، وتولى بنفسه تعليمى ، واختصنى بساعتين من وقته ، فى كل ليـلة ، أقرأ فيهما عليه » .

وكان الأب أيضاً يشفق على ابنته من شعر الغزل فيما تقرأ من كتب الأدب ، وتروى عنه ابنته قصة هذا الإشفاق ، فتقول :

« كان أبي كلما رأى فى يدى ديوان شعر ، قال لى : إنك إذا أكثرت من مطالعة الشعر الغزلى ؛ فسيكون سبب زوال كل دروسك من ذاكرتك ! » .

وبدت مخايل الشاعرية عند « التيمورية » ، وهى فى طراوة الصبا ، وحداثة العمر ، وقد روت عن نفسها ما يصور تلك اليقظة العاطفية فى قلب فتاة لم تتجاوز الثالثة عشرة .

قالت « عائشة » :

« فى إحدى الليالى جاءتنى مربيتى بطاقة ورد ، وضعتها فى مَشْرَبِيَّتِى ، وكانت الليلة ليلة البدر ، وفيما أنا أمتع ناظرى بذلك المنظر ، دعتنى أمى إليها ، فتركت طاقة الورد فى أمانة البدر ، ثم عدت من عند أمى ، فوجدت الورد مبدداً ، فأحزننى ذلك كثيراً ، ووضعت ناصيتى فى كفى ، وأخذت أفكر ، فجادت قريحتى ببيتين من الشعر الفارسى ... »

وهكذا كان الوحى الشعرى الأول عند الصبية « عائشة » لونا من التأثر بمحاسن الطبيعة ، وانعطافا رقيقاً لفتنة الأزهار والرياحين .

وما كان لفتاة لها من السناء والسنا ما « لعائشة » أن يطول مكثها فى بيت أهلها لا تخطب ، وبخاصة فى ذلك العصر الذى كان فيه التبكير بالزواج سنة المجتمع . وقد تم زواج «عائشة» لقريب لها ، فصرفتها شواغل البيت الجديد عما هفت نفسها إليه من التفرغ للأدب ، ورزقت من الذرية ما زادها شغلا ، ولكن النزوع الأدبى ظل كامناً بين جوانبها يبدو فى بعض المناسبات والأحداث ، متمثلا فى مقطعات من الشعر تترنم بها فى هناء أو عزاء .

وتوالت عليها من بعد فجائع لم تكن لها فى حسبان ، إذ قضى

أبوها ، وقضى على أثره زوجها ، وكذلك ماتت والدتها ، فثبتت « التيمورية » لهذه الفجائع تستلهم منها الحيوية والعزم ، وتستمد القوة على كفاح الزمن . ولعل هذه المحن هي التي ألهبت قلبها حنينا إلى استئناف صلتها بالأدب ، واستكمال أدواتها فيه ، واقترن بذلك أن شبت ابنتها « توحيدة » تنهض عنها بتدبير البيت وشواغله ، فأقبلت «التيمورية» — وهي يومئذ على مقربة من تمام الأربعين — تنهل من كتب الأدب ماتنهل ، وجلست إلى سيدتين تعلمانها من دقائق العلوم العربية ، وبخاصة ميزان الشعر ، ما لم تكن قد استوفت دراسته . وإنه لأمر عجب ألا يسجل التاريخ الأدبي اسم السيدة « فاطمة الأزهرية » والسيدة « ستيتة الطبلاوية » إلا بأنهما كانتا أستاذتين لطليعة الأدب النسوى في العصر الحديث . ولم يتجل أثر هاتين السيدتين المثقفتين في عهد الجهالة والحجاب إلا بفضل نبوغ تلميذتهما الشاعرة . وسيظل اسمهما حول اسم السيده «عائشة التيمورية » كالهالة حول الكوكب الألاق ، وفاء لما أسبغتاه عليها من علم وعرفان .

استطاعت « التيمورية » أن تجعل من تصاريف القدر حيالها ، على قسوتها ، مجالا خصبا للتعلم وللإنتاج الأدبي ، فأفرغت همها في إقبال على القراءة والاطلاع ، وفي مزاولة لنظم القصائد في مختلف

الموضوعات . ويمكن أن يقال إن تلك الفجائع التي حاقت بها كانت نقطة تحول في حياتها العامة . إذ بدأت بعدها مرحلة جديدة تكونت فيها شخصيتها الأدبية واضحة المعالم والسمات .

ولم تكد تمضي في عهدها الجديد . حتى كانت رزيئتها الكبرى بوفاة ابنتها العروس « توحيدة » ، وسنها نحو الثامنة عشرة . فجن جنون الشاعرة لخاتمة الفواجع التي بيتها لها القدر فاجعة بعد فاجعة واستسلمت لأشجانها تكتوي بها ، ولبثت كذلك أعواما أطلقت عليها « أعوام المناحـــة » ، كما أطلقت على البيت الذي أقامت فيه يومئذ « بيت الحزن» وقد أصيبت الشاعرة في وقدة هذه الأحزان برمد كاد يفقدها البصر .

وفي خلال تلك الفترة العصيبة ، كانت « التيمورية » قد ناوشها السخط على كل شيء ، فأهملت ما سلف من شعرها في اللغـــات العربية والفارسية والتركية ، وكادت تتردى في مهوى اليأس ، فلا تقوم لها قائمة من بعد .

ولكن الحياة أقوى من الأحداث ، وللزمن سحر في تطور الأحوال ، فإن «التيمورية» ضمدت جراحها ، ما وسعها أن تضمدها ، واستأنفت نشاطها الأدبي نظما وتأليفا .

٥
شعرها

والشعر الذى خلفته « التيمورية » أجوده ما تمخض عن تلك المحن والفواجع . وحسبك منه المرثية التى تصف بها « التيمورية » مصرع ابنتها العروس ، فقد كانت لحناً رائعاً تتمثل فيه الخفقات الراجفة من قلوب الثاكلين .

ومن أجود أشعارها تلك القصائد التى تشكو فيها الشاعرة ما عانت من عينها الرمداء ، إذ قرحتها دموع الأسى على من فقدت من الأعزاء . وقد صورت «التيمورية» فى تلك الرمديات مشاعرها إزاء محنتها الأليمة بما غشى عينها من ماء ، جهد فى علاجه نطس الأطباء وقتا ليس بالقصير .

لنستمع إليها تقول من إحدى هذه الرمديات :

لقد أصبحت فى حزن وأنّ
وقلبى بين أتعـــاب وأين
وما أهدت صبا الأسحار يوما
إلى عين غـدت فى أسر عين

تخالفت الأساة : بطول وعد
يعللنى ، ويأس فيه حينى
ومن فظ يهددنى جهارا
بمبضعه المصوب فى اليدين
وعهدى بالمياه حياة نفسى
فمالى قد ظمئت بماء عينى
وأبسط للظلام أكف بثى
وأشقى لوعة بالظلمتين
ينافرنى السنا فأفر منه
كأن الضوء يطلبنى بدين
نعانى أبيض القرطاس لما
جفانى اليوم نور الأسودين
وقد جفت دواتى وهى تبكى
لما قد راعها من طول بينى
وأقلامى قد انشقت لأنى
حرمت مساسها بالإصبعين

وإننا إذ نقرأ شعر «التيمورية» فى الشكوى والأنين ، لنحس قلبها يتفجع ويتوجع ، ونجد تعبيرها حارا عن مشاعر إنسانية عامة ، فليس هو مجرد بكاء أبكم ، ونحيب أجوف . ولكنه ذوب

نفس شعرت فتألمت فعبرت تعبيراً عليه طلاوة وفيه رقة ، لا يكاد يبلغ الأسماع حتى ينفذ إلى أعماق القلوب .

والمرتبة الثانية من الجودة فى ديوان « التيمورية » هى لتلك القصائد الغزلية ، وهى أوفر أبواب شعرها كماً ، فإن قصائد الغزل تكاد تبلغ نصف ما نظمت «التيمورية» من شعر .

وإن غزل « التيمورية » ووصفها للصبابة والوجد ، ليقطر سلاسة وعذوبة ، فيمس القلوب مسا رقيقا ، كأنه لمسات نسيم رخى تداعب الجدول الرقراق .

تقول فى إحدى مقطعاتها :

حى الرفاق وصف للحى أشواقى
وحدث الركب عن تسكاب آماقى

وبلغى يا صبـــا إن جزت نحوهم
أنى مقيم على عهـــد الهوى باق

كيف اصطبارى وأحشائى بها حرق
من جذوة مالهـا من حرها واق

قد جرعتنى صروف الدهر مرتغما
لواعجـــا كحميم أو كغســـاق

أســـال حر الهوى قلبى وأبرزه
جفنى على يد آماق وأحـــداق

هذا شواظ الهوى فى القلب ملتهبا
وفى التنفس من آثار إحـــراق

قدمت لنا «التيمورية» هذه الرقائق الغزلية متاعا أدبيا للقلوب والأذواق ، ولكن جرأة شاعرة شرقية فى القرن التاسع عشر ، بين ظلمات عصر الحجاب ، على أن تمارس القول فى الغزل ، كان جديراً أن يثير التساؤل بين النقاد والباحثين ، فهم لم يكتفوا بما أتيح لهم من ذلك المتاع الأدبى الذى جادت به قريحة الشاعرة ، وإنما طاب لهم أن يستبطنوا ماعسى أن يكون وراء ذلك الشعر من أسرار . فجعلوا يتساءلون : ما للسيدة « عائشة » والغزل ؟ وهى سليلة بيئة محافظة فى عصر محافظ تتكاثف فيه أثقال الأعراف والتقاليد ؟ كيف تعبر عن مشاعر نفس داخلها العشق ؟ كيف مضت تصور أشجان القلب ؟ كيف استباحت لنفسها أن تناجى من تحب ؟ .

كان ممن تناول هذه الناحية كاتبة وكاتب ، كلاهما من الخبراء بأهواء النفوس ومنازع القلوب ، وكلاهما ممن مارسوا التعبير عما يختلج بين الجوانح من الخواطر والخطرات .

أما الكاتبة فهى النابغة « مى » وقد مالت إلى التشكيك فى أن تكون « التيمورية » قد قالت شعرها الغزلى كله للمحاكاة والتقليد.

وفقا لما صرحت به الشاعرة ، إذ قالت : إنها «تغزلت فى غير إنسان، والقصد تمرين اللسان» . وعند «مى» أن شاعرتنا «فى طليعة نساء العهد الجديد المتعرفات حقهن فى حرية العاطفة ومشروعيتها ضمن حدودها الطبيعية،ليس فى الشرق فقط ، بل فى العالم المتمدن أجمع» . ومضت «مى» تدلل بالتمثيل من قصائد الشاعرة على أنها «صادقة اللهجة فى ذكر السعير الذى يضرمه الشوق» .

وأما الكاتب فهو الأديب الفلسفى الدكتور «منصور فهمى» إذ قال :

«أيكون غزلها ضربا من ضروب الصلة ، بمن هو أهل لذلك الغزل ، أو بمن هو حرى بهذا الحب من الرجال ؟ أيكون هو الحرمان من حرية الاختلاط بمن ترغب النفس فى الاختلاط بهم من الناس ، قد أدى إلى كبت العواطف ، وأدى الكبت إلى التنفيس عنها وتصعيدها فى التخيل والشعر والقول المنغوم ؟ أيكون هو التسامى بالغرائز الدافعة الحبيسة ، فيعمل الاستعداد الفنى والأدبى لتحويلها وتبخيرها إلى أدب وشعر ؟» .

٦

رأى فى غزلها

وإنى أحب أن أقف عند هذه المسألة — أعنى شعر «التيمورية» الغزلى — وقفة مستأنية لا تخلو من روية ، لعلى مستطيع أن أبدى الرأى فيها بقول له من الصواب نصيب .

أما أن « التيمورية » من ذوى العواطف المرهفة ، والمشاعر الحساسة ، فهذا لا خلاف عليه ، وفى شعرها على ذلك برهان فيه مَقنع .

وأما أن قلبها قدهفا إلى حب ، وأن هذا الحب قد وجد الشخص الذى يتمثل فيه ، أو بمعنى أوضح : أن « التيمورية » قد عشقت ، وأنها فى هذا العشق لم توفق أو وفقت ، فاليقين فى هذا عند علام الغيوب ، عند رب القلوب . وليس فى تاريخ « التيمورية » ولا فيما تنوقل عنها من حديث قريب أو بعيد ، ما يلقى بصيصا من ضوء ، أو طرفا من نبأ .

بقى تقليب النظر فى شعرها الغزلى ، واستخبـاره عن جلية الأمر ، فهل عبرت « التيمورية » فى ذلك الشعر عن عاطفة دفاقة ووجدان مشبوب ؟ أفى شعرها من شكوى الهوى ، ومن الوجد

والحنين ، ومن وصف ما يعتمل فى الصدور المحترقة بحر الحب ، ما يكشف عن خبيئة عاشق ، ويفصح عن روح هيمان ؟

لقد قرأت ما نظمت « التيمورية » فى الغزل . وفى أذنى مسماع دقيق ، أعالج أن أستبين به خفقات قلب عاشق ، وعلى عينى منظار مكبر ، أحاول أن أستجلى به ملامح وجه معشوق ، حتى كلت عينى من طول النظر ، وعييت أذنى من فرط السمع ، وحتى ضاق بى المسماع الدقيق والمنظار المكبر ، فلم يخلص لى شىء يطمئن إليه ضمير الباحث المنقب ، ويرضى به ذوق الناقد الأديب .

الحق أن من أراد أن يلتمس عند « التيمورية » تجارب عاشق لوعته الصبابة ، ونالت منه تباريح الجوى ، وأوعى شعره ما حاك فى صدره الحران ، فى تعبير صادق ، وأداء حى ، فإنه لن يجد مبتغاه على نحو ما يطمح إليه . وأما إن أراد أن يتوسم صورة مجددة لتلك المعانى المطروقة والأوصاف المعهودة التى أفاض فيها شعراء العربية على اختلاف مقاماتهم وأقدارهم منذ العصور الغابرة إلى وقتنا الحاضر ، متغزلين فى المرأة ، مشببين بها ، متحدثين عما يلقون من صدها ودلالها ، وما يعانون فى هجرها ومطالها ، فإنه واجد من تلك المعانى والأوصاف ملامح وضيئة تساير بها « التيمورية » أولئك الشعراء المتغزلين فى القديم والحديث .

تغزلت « التيمورية » لأنها شاعرة ، والشعر العربى أوله الغزل ، ويكاد الشاعر يرادف المتغزل ، ونحن نعرف كيف كان الاستهلال الغزلى يتصدر شتى القصائد فى شتى الأغراض ، كأنه الفواتح الموسيقية التى تتصدر فصول الملحنات « الأوبرات » وبرامج الحفلات والإذاعات . والغزل أكبر أبواب الشعر العربى جميعاً ، وهيهات لشاعر ألا يتغزل ، وإن المعانى الغزلية بما تحمل من طابع الرقة والحنين ، وبما تستوعب من نجوى القلوب ورفيف الأرواح ، أليق المعانى بالنسيج الشعرى ، وأقربها منالا منه . فالتغزل إذن كان سلم الشاعر ، وإنه لكذلك إلى يومنا الحاضر . وما الشعر فى الحق إلا غزل بأوسع ما فى الكلمة من مدلول : غزل للمرأة ، غزل للطبيعة ، غزل للمعانى ، غزل للأطياف والأشباح والظلال فى مظاهر الحياة وسرائر الوجود .

عرفت « التيمورية » ذلك كله بما قرأت من الشعر العربى ، وبما سمعت من توجيه أساتذتها الذين أشرفوا على إعدادها الأدبى ، وصادفت آفاق المعانى الغزلية استجابة من نفسها الشاعرة ، فمضت على طريق الشعراء : بسُنّتهم تقتدى ، وبسناهم تهتدى ...

ماذا كان يمنع « التيمورية » أن تتغزل ، منافسة الشعراء فيما نظموا ؟ ومن الذى قال لها إن الشاعر لكى يتغزل ، لا بد أن يحب ؟ ألم تقرأ « لجرير » ولغير « جرير » من شعراء الغزل الرقيق ما يصبى

المرأة . وما كان « جرير » وكثير غيره من شعراء الغزل فى العشاق؟ ألم تقرأ المطالع الغزلية من شعر « مهيار » ، وكلها تروعك وصفا وتشوقك حنينا . وما كان « مهيار » إلا صدى فى وصفه وحنينه لشعر أستاذه « الرضى » . لم يصدر فى شعره عن عين أرّقها هواها ، أو وجدان شب فيه التياع ؟

ومالنا نتمثل بهذا أو ذاك من الشعراء ، وأنت تكاد تحصى الشعراء الغزليين الذين اكتووا بنار الحب ، وعبروا عن عاطفة صادقة وعشق أصيل . ولكن الشعراء الذين قالوا فى الغزل صناعة وتقليداً لا يكاد يحصيهم أحد !

الشعراء — إلا الأقلين الأندرين — كانوا يتغزلون فى المرأة ويشببون بها ، ولعل أجودهم غزلا وأقدرهم على التأثير بشعرهم الغزلى ، هم الذين كانوا يصنعون الغزل صنعا ، ويقولونه محاكاة وتقليداً ، وعلى هذا النهج سارت « التيمورية » فنظمت ذلك الشعر الغزلى الذى استغرق من ديوانها النصف إلا أقله .

ربما كان من العوامل التى ضللت النقاد فى حديثهم عن الشعر الغزلى عند « التيمورية » وجعلت الحقيقة تلتبس عليهم فى فهم كنهه ، أن « التيمورية » استعملت صيغـــة التذكير فى وصف المحبوب وفى خطابه ، فلم يروا حرجا أن يقولوا : إنها تتغزل فى رجل !

ولكن الحق أن استعمال صيغة التذكير فى الوصف والخطاب كان سنة الشعراء حين يتغزلون فى النساء ، وما إخالنى بحاجة إلى سوق الأدلة على صحة تلك الدعوى ، فذلك هو الشعر العربى منذ تنوعت الأفانين الشعرية ، فى عصر « بنى العباس » ، إلى اليوم ، يتحدث فيه الشعراء عن حبائبهم من الغيد الحسان بصيغة التذكير فى الوصف والخطاب .

كلنا نتغنى بقول الشاعر فى القديم :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعه   ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعه

وكذلك نتغنى بقول « شوقى » فى الحديث :

مضناك جفاه مرقده   وبكاه ورحم عوده

وكلاهما حبيب يخاطب حبيبته ، وإن كان الخطاب لمذكر .

بل إن الأغانى العاطفية فى اللهجة العامية تجرى هذا المجرى فى الأغلب ، تخاطب فيها المحبوبة بصيغة التذكير ، ومن شاء المثل على ذلك فإنه واجده فيما يحفظ من هذه الأغانى ، قرب بها العهد أو بعد .

« فالتيمورية » حين استعملت صيغة التذكير فى غزلها ، لم تكن تعنى أن تخاطب رجلا ، ولسنا نعول فى تأييد هذه الدعوى على مجرد الإشارة إلى سنة الشعراء وأصحاب الأغانى فى ذلك قديماً

وحديثا . وإنما نجد الدليل الحاسم فيما احتوى شعر « التيمورية »، الغزلي من مضمون وصفي .

هذا قولها :

عذب الرضاب مهفهف يسبي المتيم بالحور
من منجدى ، وجفونه منها المحب على خطر
قابلته متثنيا تاهيك من غصن خطر
ورأيته متبسما كالبدر لما أن سفر
اصدع بحسنك وافتخر تيها بجيدك والطرر
فالشمس تخجل عندما تبدو ويستحي القمر

وذلك أيضا قولها :

سلوا جفنى الهامى أسقم أصابه
أم الوجد من «ليلى» أباح انصبابه
وميلوا على قلبي بلوم فإنه دعاه إلى نادى الهوى فأجابه
فلى بين مكسورين : قلبي وجفنه
حياة عزيز أغلق الذل بابه
ولا تعذلوا آماق صب بفرحة
فعند امتلاء الكأس يبدى حبابه

هكذا وصفت « التيمورية » حبيبها : فى ريقه العذب ، وعينه

الحوراء ، وعوده اللدن ، وجيده الجيل ، وطرره الفاتنة ، وجفنه المكسور . وما هذه الأوصاف إلا محاسن النساء التى هام بوصفها الشعراء ، وما «التيمورية» فيها إلا شاعرة تقمصت شخصية رجل يتغزل فى المرأة ويناجيها ، ولكن بصيغة التذكير ، جريا على العرف الشعرى المألوف .

ومقطع الرأى فى شعر « التيمورية » الغزلى أنك لو عنونته جميعا بأنه ترانيم رجل عاشق يصف بها عشيقته ويناجيها ، لما شذ بيت واحد من الشعر كله عن أن ينساق لذلك العنوان !

٧

بين عائشة التيمورية ورابعة العدوية

وثمة جانب آخر من « ديوان التيمورية » يروعك بما فيه من شعر صادق الوحى ، نابض الإلهام ، ذلك الجانب هو القصائد التى تتصل بحكمة الحيـــاة وفلسفة الكون ، وتنزع منزعاً دينياً فى الاستغاثة بالله والابتهال إليه ، وتحية رسوله صلوات الله عليه .

قالت « التيمورية » :

كم ذا نمنى بالآمـال أنفسنا حتى كأن الفتى طول المدى باق
فالدهر تبسم عن حقد بشائره فينا ويطوى نكالا ضمن إشفاق

فانظر ترى الناس سكرى غفلة عظمت
أدارها الدهر واستغنى عن الساقى
ما الحظ إلا امتلاك المرء عفته   وما السعادة إلا حسن أخلاق

هذه الورقاء الهتوف ، التى تجلت رهافة أحاسيسها الشاعرية منذ صباها ، صهرتها محنة تلو محنة ، فترفعت عن شوائب الحياة وظواهرها العابرة ، وشف روحها عن إيمان مكين ، وهفت نفسها إلى أفق علوى مصفى ، فحلقت بأخيلتها تتطلع إلى السماء وتشغف بمناجاة الله ، فسها من العشق الآلهى قبس ، وانفتح لها إلى التصوف طريق ، حتى لكأن شأنها فى عصرنا الحديث شأن « رابعة العدوية » فى عصرها القديم ، بينهما تجانس وثيق ، وبينهما مشابه ملحوظة .

حقاً ، لم تكن حياة « عائشة التيمورية » على نحو حياة « رابعة العدوية » ، ولم يكن لهذه من الملابسات ما كان لتلك ، بيد أنهما التقتا فى أنوثة رقت مشاعرها حتى اتصلت بحب الله ، كلتاهما ناجت الملأ الأعلى مناجاة صوفية خالصة ، وكلتاهما عبرت عن أشواقها الروحية فى نسج شعرى هفهاف .

دونك لوامع من أبياتها إلى الله :

أتيت لبابك العالى بذلى   فإن لم تعف عن زللى فمن لى ؟
مقرا بالجناية وامتثالى   لأسر النفس فى عقدى وحلى
ومعترفاً بأوزار ثقال   أقاد لحملها طوعا لجهلى

أقر بزلتي من قبل كيلا تقر جوارحي بالذنب قبلي
أتيت ولي ذنوب ليس تحصى أقول لراحمي : بالعفو كن لي

ومن قصائد « التيمورية » في هيامها الديني مطولتها التي سبقت بها في عصرها الحديث « شوقي » صاحب «نهج البردة» في معارضة القصيدة المعروفة « بالبردة » لصاحبها « البوصيري » في مدح الرسول .

وإليك بعض أبيات تلك القصيدة التيمورية في التوسل بالمقام النبوي الكريم :

إني رددت عناني عن غوايته وقلت يا نفس خلي باعث الندم
ولذت بالمصطفى رب الشفاعة إذ
يدعو المنادي فتحيا الناس من رجم
روحي الفداء ومن لي أن أكون له
هذا الفداء وموجودي كمنعدم
والعمر أفنت ثقال الوزر لجته وبددته صروف الدهر بالتهم
من لي بترب رحاب لو أفوز بها
كحلت عينا أفاضت دمعها بدم

طابت ذكرى « التيمورية » من شاعرة ، مرت في هذه الدنيا ، لتهدى إليها نفحات وجدان حيّ ، وقلب عطوف .

وسلام عليها ، في دار السلام !

شوقي والمسرح العربي

الشعر المسرحي في أدبنا العربي ، لا ينسى لأمير الشعراء «شوقي» أنه هو الذي رصعه بفرائد تألقت ومازالت تتألق ، ولا أحسب أنها ستفقد ألقها على الزمان . وشخصية «شوقي» في الحياة لاتقل طرافة عن شخصيته في الأدب ، بل لعل معالم تلك الشخصية البشرية هي التي غذت مواهبه الفنية بغذاء قوي ، وهي التي كان لها الأثر البعيد فيما قدم من روائع القصيد .

كان «شوقي» في قصر الإمارة مطوي الجوانح على خصائص ديمقراطية شعبية ، وكانت نظراته الأخلاقية وأفكاره الاجتماعية ونزعاته الوطنية تمثل أزكى ما يختلج به ضمير الرأي العربي العام من مشاعر ومثل ، وأبعد ما يتطلع إليه الوعي القومي من أهداف وأماني . وفي الحق أن «شوقي» كان حاضرا بجسده على كرسيه في تلك المناصب السامية ، يتخذ لها رسومها وأوضاعها ، فأما أشواقه الروحية وحياته المعنوية فكانت خارج تلك الحـــدود والقيود ، تتنفس أنفاسها فيما يتغنى به من شعر ، وفيما يمرح فيه

من انطلاقات فى قلب البيئات الشعبية العامة ، فمن شاء أن يشهده فى جوهره الأصيل ، عاريا من زخرف المراسم، وجده فى ندوات ومشارب يختلف إليها جمهرة الناس هنالك يجلس محوطا بأخلاط من خلق الله ، فيهم ناشئة الأدب ، وفيهم من تتفاوت ثقافاتهم بين الحضيض والأوج ، وفيهم من لايحسن إلا أن يتظرف ويردد مايشيع من نكات وأضاحيك ، وكان « شوقى » يحرص فى مجالسه تلك على الاستماع ، وقلما يشترك فى الحديث ، فما هو من المتحدثين الذين أوتوا ذلاقة اللسان وطلاقة البيان ، ولا أظن أنه ألقى يوما قصيدة له فى حفل ، وإن زخرت المحافل بالمنشـــدين لقصائده يتخيرهم لها تخيرا ، بل يعدهم إعدادا . ومن طرائفه أنه نظم قصيدة فى رثاء « أمين الرافعى » وجد فى البحث عمن ينشدها فى حفل التأبين ، فخانه التوفيق . وألقيت القصائد فى الحفل دون المرثية الشوقية ، فلم يكن من «شوقى» إلا أن دفع بقصيدته إلى صحيفة يومية لتنشرها ، وقد أضاف إليها هذين البيتين ، مخاطبا المرثى :

إنْ يَفُتْ فيكَ منبر الأَمسِ شعرى
إنَّ لى المنبرَ الذى لن يَزُولا

جَـــلَّ عَنْ منشدٍ سوى الدهر
يلقيه على الغابرينَ جيـلاً فجيلا

* * *

وجلساء « شوقى » كانوا يعرفون منه أنه كثيراً ماينسرح عنهم بخواطره ، فإذا هو حاضر كغائب ، وكأنه فى إغفاءة . وبغتة تستيقظ يده لتمتد إلى علبة اللفائف ، لا ليدخن منها لفافة ، بل ليكتب على ظهرها مامنحه الوحى المفاجىء من أبيات .

ولم يكن « شوقى » فخم الشخص ، بارز الهيئة ، فكان إذا سار وحده تخطته الأعين لاتباليه ، ومعظم أمسياته كان يقضيها فى مقعد أمامى من دور الخيالة « السينما » ، يشهد ما يظهر عليها من روايات ، دون أن يعرفه أحد من الرواد ، إلا فى الندرة .

* * *

وقد تملك « شوقى » ناصية لغتين : العربية والفرنسية ، وكان فى أدبهما مكينا ؛ فأما فى العربية فقد تعلم السرى — كما يقول — على كواكب من علماء « الأزهر » وأدبائه ، وأما فى الفرنسية فقد اكتسبها أثناء مقامـــه للدرس فى ربوع « باريس » ، وأغصان شبابه تميد . على أنه بدراسته وتنوع ثقافته وأخذه من كل من التراث العربى والأوربى بنصيب ، اكتسب طابعا خاصا ، وذوقا متميزا جعل منه شخصية أدبية مستقلة ، وإن كانت أصولها وجذورها تستمد حيويتها من هنا ومن هنالك . وفى ذلك دليل على قوة تمثله

وهضمه لما قرأ وما درس من أفانين الأدب، ما شرّق منه وما غرّب في قديم أو حديث .

وقد لبث « شوقي » يتزود من الأدب ، منهوما لا يشبع ، فلم يكن يمل الاطلاع أو الاستماع لما يتلى عليه من روائع الأدباء والمفكرين . وفيما يؤثر عنه أن « كامل كيلاني » أنهى إليه عزمه على نشر ديوان « ابن زيدون » ؛ و « شوقي » يومئذ في شيخوخته ، قد قارب أن يرد منهل منيته ، فلم يصبر على الديوان حتى يطبع كله ، ورغب إلى « كامل كيلاني » في أن يعجل إليه ما يطبع من الديوان أولا فأولا ، فكان يبعث إليه بالكراسة تلو الكراسة بعد الفراغ من طبعها على الفور ، وهكذا تابع « شوقي » قراءة ديوان رصيفه « ابن زيدون » قبل أن يجتمع شعره في كتاب مطبوع تام . وظفر الديوان من « شوقي » بتلك القصيدة التي صدره بها ، ومطلعها :

يا « ابن زيدون » مرحبا   قد أطلت التغيُّبا

وفي هذا البيت يتمثل حنين الشاعر إلى الشاعر ، ولقاء الأديب للأديب ، بعد الغربة والمغيب ! .

* * *

وإذا كان « شوقي » قد احتفظ في قصائده ومطولاته بأوضاع

الشعر العربي التقليدي ، من وحدة الوزن ، ووحـــدة القافية ، ووحدة البيت ، فإن وحدة الموضوع أو وحدة الفكر في قصيده أو في منها في قصيد من سبقه من فحول الشعراء . فمن تجديده في الشعر العربي أن قصيدته كانت تخضع لهندسة ذهنية تستمد أصباغها وأضواءها من مخيلة متفننة قادرة ، والموضوع في معظم قصــائده متواصل الأطراف ، متماسك الأوصال ، متكامل الصور ، معانيه يأنس بعضها ببعض ، وأفكاره يتوضح فيها التركيز والتجسيد ، وكأن كل قصيدة ذات خطة مرسومة في دقة وإحكام .

* * *

وقد حلا لبعض النقـاد أن يقرنوا « شوقي » بـ « المتنبي » ، وبينهما من أبعاد الزمن ألف من السنين ، وليس « المتنبي » بحاجة إلى من يزكيه أو من ينصفه ، فقد فسح له التاريخ الأدبي في رحابه وطبع أدبه بخاتم الخلود . ولكن « شـــوقي » في الحق لم يكن كـ « المتنبي » مقصور الحكمة والوصف على ما يعرض بخلال القصائد التي تضمنت تلك الأغراض التقليدية المحصورة في مدح أو غزل أو حماسة أو رثاء ، ولم يكن مثله محدود الصلة في عصره بولاة الحكم وأمراء الحروب ، يدور حول أحداثهم وشخصياتهم بوحيه وخياله ، وإنمـا كان « شوقي » في الجملة قلب وطنه الخافق ،

ولسان أمته الناطق ، إذ استجاب أيما استجابة لكل ما اعتلج في حياتنا الوطنية والسياسية والاجتماعيةمن مشاعر وأشواق ورغاب. وكان شعره يمثـــل أصدق ما في مجتمعنا العربي من وعي جديد ، وأروع ما انبثقت عنه النهضة الحديثة من نزعات واتجـــاهات وهتفات . وهو القائل :

كان شعري الغناء في فرح الشرق   وكان العزاء في أحزانه

لم يدع «شوقي» جانبا من جوانب القول في الوصف والتعبير والاستيحاء إلا كان له فيه مجال.هو الذي أشاد بالقواعد الأخلاقية النبيلة ، والمبادىء الاجتماعية الرشيدة ، في أبيات مشرقة سارت مسير الأمثـــال . وهو الذي بشر بالمذاهب العصرية في تحرير العقول وتطوير الحياة والأخذ بأسباب الرقي والنهوض . وهو الذي استلهم حكمة التاريخ ومجد الحضارة فيما خلفه لنا الأسلاف من تراث فكري وفني وعمراني ، وهو الذي تغنى بعظمة الشرق ووشائج العروبة وهدى الدين ، وهو الذي نظر إلى مفاتن الطبيعة: من نهر وجبل وروض ؛ نظرة فنان أصيل ، فوصفها بأسرارها في روعة وافتتان . وهو الذي عبر في شعره كله عن فلسفة حيوية واقعية عصرية ، تساير التطور ، وتدامج الحياة ، ولا تقنع بالتأمل النظري المجرد ، الضارب في أودية الأوهام .

وليس أدل على أن « شوقى » كان قوى الوعى بحاجة الأدب إلى التنمية والتطوير ، من أنه ألقى على نفسه ، وقد علت به السن ، تبعة جسيمة ، هى أن يضع بزرة جديدة فى حقل الشعر العربى ، ينقله به من نطاق القصائد والمقطعات وما إليها من الأوضاع التقليدية السائدة ، إلى ميدان رحيب ، وأفق عريض ، وما كان للشعر العربى بذلك عهد من قبل .

وجد «شوقى» مكان المسرحية فى الشعر العربى خاليا ، فأرسى فيه تلك الدعائم الوطيدة من مسرحياته : « مصرع كليوبترة » و « مجنون ليلى » و« قمبيز » و« عنترة » و « على بك الكبير » ... وإذا كان «الهمذانى» قد أنشأ فى الأدب العربى القديم فن «المقامات» وكان الأديب المجهول قد صنف « ألف ليلة وليلة» ، فإن «شوقى» هو الذى وضع قواعد الشعر المسرحى ، فى ذلك الأدب العربى ، وبذلك أثبت قدرة الشعر العربى على بناء المسرحية نظما ، وكذلك أثبت استعداد رواد المسرح من جمهور النظارة للاستماع إلى شعر عربى صميم ، مع الاستمتاع بما يصور من مشاهد التمثيل .

ويبدو أن « شوقى » كان منذ نشأته يهفو إلى التأليف القصصى والمسرحى ، فقد ظهرت له أعمال تتصل بالناحية القصصية موضوعة ومترجمة ، حتى إنه وهو فى « باريس » يدرس ، ألف

بالشعر العامى المعروف بـ « الزجل » مسرحيته «على بك الكبير» التى حولها فيما بعد إلى مسرحية بالشعر الفصيح .

والمسرحيات الشوقية تستمد موضوعاتها من التاريخ ، ولكن شاعرنا كان يجعل من مواقفها ومن أحداثها تبشيراً وتزكية للنزعات الوطنية والمبـــادى التحررية والأفكار العصرية ، ولطالما تغنى فيها بما للشعب العربى من مفاخر ، ومافيـــه من خصائص ، وما أسهم به فى موكب الحضارة الإنسانية من جهود .

* * *

أما مسرحيات « شوقى » فى ميزان النقد الفنى ، فليس مما يغض منها الإقرار بأن نصيب الشاعرية فيها أقوى من نصيب الحرفية فى التأليف المسرحى : ولعل مسرحية « مجنون ليلى » هى الأوفى نجاحا وتوفيقا ، وسر ذلك أن قصة « المجنون » — فى توقد عواطفها وحيوية موضوعها — أمدته بما استجابت له شاعريته إلى غاية بعيدة . ومما عرف عن « شوقى » فى تأليفه لمسرحياته أنه كان يدير الموضوع فى رأسه بصورة شاملة ، ويتمثـــل المواقف منفصلا بعضها عن بعض ، ويعكف على كل موقف فينظم ما يصوره به ، ثم يجمع هذا الشتات ، ويربط بين أوصاله بما يتيسر له . وهـــذا المنهج غير مأمون فى الوفاء بالوحـــدة والتسلسل فى البناء المسرحى الفنى .

"حافظ" و"ليالى سطيح"

على رأس العقد الأول من القرن العشرين ، كنت أصحب المرحوم والدى «أحمد تيمور» إلى «الكتبخانة» — «دار الكتب المصرية» — فى الفينة بعد الفينة . وكان هو دائب الاختلاف إليها ، يجعلها مثابته المفضلة ، فيها يقضى أطيب ساعات يومه ، وأمتعها لديه ، إما خاليا إلى كتاب فريد يطالعه ، وإما جالسا إلى صديق أديب يؤانسه .

ومن بين من لقيت مع أبى فى بعض تلك الزورات ، شاعر النيل « حافظ إبراهيم » ، واسمه يومئذ يملأ الدنيا ويشغل الناس ، كما قيل فى سلفه الشاعر « أبى الطيب ». إذ كانت الصحف تتناقل قصائده فى الوطنية والقومية ، والأندية تعج بصوته منشداً شعره فى مناسبات الأحداث والذكريات العامة التى تعقد لها المجامع وتقام الحفلات .

لقيته على سلم الدار ، ينفث دخان لفافته . وكان حتما عليه وعلى رواد الدار جميعا موظفين وزوارا ألا يشعلوا لفائف التبغ

فى الأبهاء والقاعات ، فإذا اشتد الشغف بأحدهم أن يدخن ، وجب عليه أن يبرح الدار . ولا أقل من أن يبدأ إطلاق دخانه عند رأس السلم العريض .

رأيت امرءا تتهدل حلته على جسده ، كأنها غير مفصلة عليه . أشعث الشارب ، منتفخ الوجه ، كليل البصر . وفى يده عصا غليظة يتوكأ عليها ، فلما قدمنى والدى إليه ، وذكر اسمه لى ، أنكرته فيما بينى وبين نفسى ، وأحسست إحساس من خاب أمله . وارتسم فى خاطرى المثل السائر : « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه » .

وما لبث « حافظ » أن طوح بعقب اللفافة ، وصعد معنا إلى الطبقة الأولى ، وقصدنا جميعا مكتب الشيخ « البيلاوى » ، وكان من أساطين الدار ، وهو شيخ اشتهر باثنتين : حرارة الدعابة والتنكيت ، ومتانة العلم والدين . وكأنه يطبق الحكمة الشعبية : « ساعة لقلبك ، وساعة لربك ! ... » رجل ظريف بحباح ، إذا أدار مع جلسائه مناقشة ، تحرى ألا يخلط قوله بخشونة البحث وجدية الدرس ، حرصا منه على أن يرفه عنهم بالحديث المأنوس .

وكان « حافظ » يبز الشيخ « البيلاوى » فى حلاوة النكتة ، ومرارة السخرية ، وفى إشاعة جو المفاكهة ، وروح المطايبة ، بما يرويه من نوادر ، وما يتفنن فيه من أضاحيك .

وما استقر بنا المجلس ، حتى انطلقا معا فى هذا الميدان ، فرسى رهان ، يصولان ويجولان . وإذا الحجرة ترتج بمن فيها من طرب ومراح ...

وقد عرفت « دار الكتب المصرية » فى مطلع هذا العصر ، من أمثال « حافظ إبراهيم » أفذاذا ضمتهم جوانبها بوصفهم عاملين فيها ، ولم يكن لهم فى الواقع جسيم عمل أو كبير غناء . وإنما كانت جل صلتهم بها أن يترددوا عليها بانتظام أو دون انتظام . وكأنما الدار فى قوة وعيها وسلامة تقديرها ترحب بهؤلاء أحياء يتنفسون أنفاسهم فى جوها ، يقينا منها أن أمثالهم هم موضوعها الخالد على وجه التاريخ ، وهم القيم الغالية الباقية فى مستودع القرائح والأفهام والأقلام ، سواء أكانوا أشخاصا يرددون أنفاس الحياة ، أم كانوا آثارا وذكريات علمية وأدبية فى أوراق ومجلدات !

ويخيل إلىّ أن «حافظا» خشى أن تنتهى زيارتنا ، وليس له فى ذهنى إلا تلك الصورة الهازلة لشاعر النيل ، فإذى رأيته يطوى بساط اللهو والمعابثة ، ويقبل علىّ قائلا فى مباسطة :

هل تعرف الفرنسية ؟

فنفيت معرفتى بها . وأنبأته بأن اللغة الأجنبية التى أتعلمها فى المدرسة هى الإنجليزية لا غير . . . فصاح فى ضجة :

كلام فارغ ... أية إنجليزية هذه؟ اسمع يا بنى : تعلم الفرنسية فهى لغة الأدب الرفيع .

وواجه أبى يقول له :

ألزمه أن يتعلم الفرنسية ... إيت له بمدرس خاص يلقنه إياها .

وانبرى يطنب فى مزايا الفرنسية، وما تحويه آدابها من نفائس. واستطرد إلى « فكتور هوجو » فأفاض فى الكلام على شعره ونثره جميعاً ، مستشهداً بمختارات يترجمها إلى العربية فى إعجاب بما حوت من معان .

وأخيراً ضرب كتفى ، وقال :

عليك بالفرنسية ، عليك بها لتقرأ « فكتور هوجو » فإن لم تقرأ غيره ، فكفى به أديبا .

وبعد حين ، جاءنى أبى بنسخة من تعريب « حافظ إبراهيم » لكتاب « البؤساء » ألمع درة فى أدب « فكتور هوجو » . وقال لى :

هذا كتاب صديقنا شاعر النيل الذى التقيت به فى « دار الكتب » .

وعكفت على الكتاب أقرؤه ، على علو طبقته فى بلاغة الإنشاء ، وفى سمعى يرن صوت « حافظ » وهو يحثنى على أن أتعلم الفرنسية ، لأتزود من أدب « فكتور هوجو » على الأقل !

ووقع فى يدى من بعد ، كتاب « حافظ » القصصى المسمى : « ليالى سطيح » ، وهو من تآليفه فعجبت أشد العجب من التباين الشاسع بين المسلك الفنى فى هذا الكتاب الذى ألفه وبين القصة الفرنسية التى ترجمها ، ويبدو أن شاعر العربية لم يشأ أن يحاكى نمط القصة الغربية فى صيغتها الحديثة التى استهواه نموذجها فى كتاب « البؤساء » ، وآثر أن يستوحى قالب كتابه القصصى من مأثورات الأدب العربى ، وما تجددت به أنماطها فى العصر الحديث .

فما لاريب فيه أن ظهور كتاب « حديث عيسى بن هشام » للمرحوم « محمد المويلحى » كان هو الذى بعثه على أن يأخذ هذا الأخذ ، وينسج على هذا المنوال ، فى « ليالى سطيح » . بيد أن الفارق بينهما أن « المويلحى » كان فى موضوعات كتابه أجنح إلى تصوير مشكلات المجتمع وظواهر العادات والأعراف والتقاليد ، وأن « حافظا » كان يقصر همه ، إلا أقله ، على المسائل القومية ، والقضايا السياسية ، وما يتصل بها من محن وأرزاء كانت مصر تصطليها على أيدى غاصبي حقوقها الأجانب والدخلاء ، فإذا كان

كتاب « المويلحي » اجتماعيا في الغالب ، فإن كتاب « حافظ » كان سياسياً وطنياً في الأغلب ، ولكن كلا منهما استطاع أن يصب أفكاره في قالب حواري فيه ابتكار وابتداع ، لا هو إلى القصة الفنية المستحدثة ، ولا هو إلى المقامة البلاغية المأثورة ، ولكنه فن بياني يتخذ من مناقلة الحديث سبيلا إلى بسط الآراء ، وعرض الصور ، والتلميح إلى المقاصد البعيدة ، والرمز للخفايا العميقة ، بحيث تتوافر لذلك كله أمهات العناصر التي تجعل من العمل الكتابي نموذجا أدبياً جميلا ، فيه للعقول غناء ، وللنفوس شفاء ، وللأذواق متاع .

ويتجلى افتتان «حافظ» بأدب «المويلحي» في أنه لا يقتصر على محاكاة أسلوبه ومنحاه ، بل يتعداه إلى الاقتباس منه في أثناء لياليه ، فهو يورد فصلا كاملا ، هو الفصـــل الذي يصف به « المويلحي » حديقة الحيوان قصرها ومتنزهها في حديث «عيسى بن هشام» .

وكتاب «حافظ» مجموعة أحاديث يرويها أحد أبناء النيل ، ومن الغلو أن ندعوها قصصاً بالمعنى المفهوم من القصة ، ولعلها أولى بأن تسمى أحداثا ومشاهدات وأوصافا تستقل كل منها عن الأخرى أو تكاد ، وإن كانت ذات طابع واحد في السرد والأسلوب .

وفى الكتاب بطلان : الأول الراوى نفسه ، والآخر «سطيح» ... أما الراوى فهو امرؤ يرثى لأمته مما تعانيه فى حياتها الاجتماعية والسياسية ، وينشد لها وسائل الإصلاح ، ولا يألوها نقداً ولوما ، ولا يدخر عنها إرشاداً ونصحاً ... يصفه « حافظ » بقوله :

« أديب بائس ، وشاعر يائس ؛ دهمته الكوارث ، ودهته الحوادث ؛ فلم تجد له عزما ، ولم تصب منه حزما ... » . وهو يعنى نفسه بلا مراء .

وأما « سطيح » فهو حكيم صالح ، أقامه «حافظ» حكما عدلا فيما يعرض عليه من قضايا العصر ومشكلاته ، وهكذا جعل الراوى يرتاد الأماكن ، ويلاقى الناس ، فيشاهد ويناقش، ويتأمل وينقد ، مفصحا عما يجيش فى صدره من آمال وآلام ، فإذا نفض جعبته لشيخ الحكمة «سطيح» سمع منه الرأى الصائب والقول الفصل .

وكما اختار « المويلحى » بطله الأول من بين شخصيات العرب الروائية ، وهو «عيسى بن هشام» بطل المقامات الهمذانية ، اختار «حافظ» بالمثل بطله الذى سمى به كتابه ... لقد عاد إلى عصر الجاهلية يفتش فى دفائنه ، فاستخرج منهـا عرافا يدعى «سطيحاً» هو إلى شخصيات الأساطير أقرب منه إلى الشخصيات الحقيقية ، واسمه

«ربيع الذئبي»، وقد لقبوه «سطيحا»، لأنه كان لحما دون عظم، لا يستطيع وقوفا ولا مشيا، ولكنه مستلق على ظهره أبدا، فإن أرادوا نقله طووه طي الحصير. ولم يكن له رأس ولا عنق، بل كان وجهه في صدره، وقد تكهن بفتح الحبشة لليمن، وبظهور الإسلام، وكان من المعمّرين، يعد من سنيه مئين!

والنظرة الإجمالية في الكتاب، ترينا أنه يحاذينا الحديث في كثير مما كانت تتناوله الصحف من موضوعات العصر ومشكلاته وشخصياته، فهو سجل يمثل لنا مظهراً من حياة مصر في تلك الحقبة، ويمثل لنا في الوقت نفسه جانبا من حياة «حافظ» ونفسيته، فقد كتبه بعد خروجه من الجيش وعودته من السودان، على أثر اتهامه بالاشتراك في الحركة الثورية التي يسميها «حادث الذخيرة».

وقد عانى «حافظ» في ذلك الحين ما عانى من شظف العيش، فاستبان في الكتاب ما استشعره من السخط على الحياة، والنقمة من انحلال الأخلاق، ورأيناه يلجأ إلى حمى الفضيلة والدين، ويظهر في ثوب الواعظ الغيور ...

وفي الكتاب موضوعات شتى، فهو يتكلم على تحرير المرأة، ويتصدى للدفاع عن «قاسم أمين»، ثم يتحدث عن أهل «سورية»،

ذاكراً مناقبهم، مشيداً بأفضالهم على العربية. ثم يأتى دور الامتيازات الأجنبية ، فيقول فيها :

«ما دام امتياز الأجانب ، فلغير المصرى عزة الجانب ، الرومى يطعن بمديته ، ويستظل بعلم دولته ، والمصرى يحمل القتيل ، ويخضع خضوع الذليل » .

ويتحدث فى الصحافة ، فيذكر صحافة السوء بالسوء ، ويقول على لسان أحد الصحفيين شاكيا :

« فأنت اليوم بين أمرين : إما الفضيلة والنعش ، وإما الرذيلة والعيش » .

ثم يذكر « شوقى » فينقده فى غير رحمة ، ثم يدافع عنه دفاع المستضعف ، ويترك الحكم أخيراً إلى « سطيح » فيقول :

« لو أنه منح من دقة المبانى ، ما منح من رقة المعانى ، فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلق ديباجته ، لكان شاعركم غير مدافع ، وواحدكم غير منازع » .

ولا ينسى « الجامعة المصرية » ، فهو يحث المصريين ملحا متحمسا على بذل الأموال فى سبيل إنشائها . . . ولما كانت ثورة السودان سببا فى خروجه من الجيش ، فقد وجدناه يخصها بنحو الخمس من كتابه ، وفى حديثه عن الفتنة يسهب فى وصفها منددا بالخونة ، منتقداً

سياسة الإنجليز أشد انتقاد ، ويعقب على هذا بحديث عن المعتمد البريطانى «اللورد كرومر» وما كان من أفاعيله فى «مصر» ، وفى هذا المقام ينقل مقالا بأكمله للشيخ على يوسف نشره فى صحيفته «المؤيد» ، عنوانه «السياسة الضعيفة العنيفة» ، ومغزاه أن المحتلين اضطروا إلى استعمال العنف ليستروا وراءه ضعف سياستهم ، فالإنسان إذا ضعف فى الحجة والرأى ، لجأ إلى القوة والعنف . وهو لا يغفل حادث «دنشواى» المعروف . و«حافظ» إذا تكلم فى السياسة القومية كان فى قوله سطوة ، وفى رأيه صراحة ، لا يداجى ولا يحابى ، فهو الوطنى الذى لا يطيق لوطنه هضما ولا ضيما .

وفى الكتاب صفحات لطاف فى وصف الطبيعة والنيل والأسواق المصرية ، وشيخة الزار ، والراقصة ، وما إلى ذلك من مجالى الحياة وظواهر المجتمع .

يصف «شيخة الزار» بقوله :

«تدخل على المقصورات فى القصور ، والمخدورات فى الخدور ، فتفتق بطبلها طبل آذانهن ، وتهز بأسماء الجن نواعم أبدانهن ، وتعمى بدخان البخور نجل أعينهن ... »

وعلى الجملة ؛ فإن موضوعات الكتاب صدى لنفسية «حافظ» فى جهارة ووضوح ، ومرآة لعصره وملابسات قومه فى أمانة وصدق .

أما إذا أردنا أن نوازن بين «ليالى سطيح» و «حديث عيسى بن

هشام » فى قول موجز ؛ فلنا أن نقرر أن « المويلحى » حاول الدنو من القصة الفنية بما رسم من شخصيات حية ، وما صور من مشاهد شائقة . وأن « حافظا » كان معنياً ببسط الشكايات والشجون التى تعتمل فى صدور الوطنيين الأحرار ، بما يجدونه فى بلادهم وبين قومهم فى ذلك العهد الذى شاع فيه الاضطهاد والاستبداد .

أما الكتابان ففى الطبقات العلى من الفصاحة والبلاغة . تقرؤهما فيخيل إليك أن كلا من الكاتبين الكبيرين كان يختار ألفاظه ، ويؤلف بينها فقرة فقرة ، كما ينتقى الجوهرى حبات الماس ، وينظمها فى عقد ثمين . غير أن « المويلحى » كان يتبسط فى أسلوب حواره . ويجدله جدلا طبيعياً . فتأتى جمله نابضة بالحياة ، قريبة إلى الذوق العصرى الشائع . فى حين أن « حافظا » كان يتأنق ما وسعه التأنق ، لا يترخص من البداية إلى النهاية فى كلمة أو عبارة ، فإذا كان « المويلحى » أخف روحاً وألطف مسلكا ، فإن « حافظا » أمتن حبكا وأدق سبكا .

هذا ، ولما كانت « ليالى سطيح » قد ظهرت فى وقت لم يكن للقصة فيه نصيب وافر ومقام يذكر ، فإننا نعترف « لحافظ » بفضل المشاركة فى السبق إلى اتخاذ النمط القصصى - على نحو ما - وسيلة للتعبير الأدبى الفنى عن ملامح عصره ، ومشكلات مجتمعه .

وفى هذا من التجديد ما فيه .

طه حسين

فكر مستقل ، وروح خيرة ، وصبغة
فنان ... ذلك هو نابغة أدبنا العربي :
طه حسين .

أستاذنا طه حسين تتبلور فيه أزكى نفحات النهضة العربية الحديثة من دعوات وهتفات في الوطنية والسياسة ، وفي العلم والدين ، وفي الثقافة والأدب . فهو خلاصة مركزة لأعلام تلك النهضة : مصطفى كامل ومحمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول ولطفي السيد وأشباههم القليلين ، أولئك الذين أوقدوا نار الثورة وأضاءوا منار الحرية وحملوا لواء التقدم والتطور . وهو بذلك أعرف المعارف بين الشخصيات البارزة ، في عصرنا الحاضر . فما هو إذن بحاجة إلى تعريف ، ومن يحاول ذلك فهو في الحق يحد من نطاقه غير المحدود ، وينبغي أن يقرب إلى الأنظار هذا الأفق البعيد . ولكني مع ذلك يطيب لي أن أوجز تعريفه في بضعة عناصر :

فكر مستقل .

وروح خيرة .

وصبغة فنان .

وقد التأمت هذه العناصر فى شخصية كمنت فيها بزرة النبوغ منذ البداءة ، وظلت تؤتى ثمارها على الأيام وما تزال .

بالفكر المستقل استطاع « طه حسين » أن يبث فى حياتنا العقلية والأدبية معنى الحرية بأقوى ما تدل عليه ، ويبعث فينا نزعة التجديد بأكرم ما تشير إليه . فحين شرع فى مطلع حياته يدرس الأدب العربى كان أجلى مظهر له فيما درس أنه لم يذعن لما تواضع عليه السابقون من آراء وماساقوه من أحكام ، ولم يستسلم لما تعارف عليه معاصروه من طرائق البحث وأنماط التأليف . ومن ثم كان أول كتاب أخرجه — منذ نصف قرن — هو فى الواقع أول كتاب فى أدبنا العربى يدرس بيئة الأديب وشخصيته والمؤثرات التى اعتملت فيه ، على هذا النهج الذى تجلى فى كتاب « ذكرى أبى العلاء » ... ثم توالت بحوثه ودراساته من بعد ، فى النقد الأدبى ، وفى الإصلاح التعليمى ، وفى التوجيه الاجتماعى ، وفى التثقيف بوجه عام ، فكانت فى جملتها مثلا عاليا لاستقلال الفكر ، وجدة الرأى ، وتميز الملامح الخاصة فى كل مايعبر به ويدعو إليه .

وبالروح الخيرة مضى « طه حسين » يرسم لنفسه سلوكا

إنسانياً رفيعاً ، لم يحد عنه حين جرى قلمه بتصوير الحياة والأحياء ، وبالتعبير عن الوجدان الاجتماعي في أصالة وصدق ، ولم يحد عنه كذلك حين تمرس بالمناصب : أستاذاً وعميداً جامعياً ووزيراً ورجلا من رجالات الدولة ، له سلطاته ومشورته وتوجيهه في جلائل الأعمال .

لقد كان « طه حسين » فيما قرىء له من قول ، وفيما أثر عنه من عمل ، وفيما أسدى إلى الناس من سعى — إنسانا كبير القلب ، سمح النفس ، رهيف الشعور ، فلا غرو أن تلتف حوله القلوب ، وأن تألفه النفوس ، وأن يحوطه معاصروه بهالة وهاجة من مشاعر الحب والإعزاز ، سواء في ذلك من تلقوا عنه ، ومن قرءوا له ، ومن اتصلت أسبابهم بأسبابه ، ومن أفادوا منه على قرب أو على بعد .

وأما صبغة الفنان في شخصية « طه حسين » فهى ميسم يطبع أعماله الأدبية جميعا ، حتى ما كان منها خالصا للبحث والدرس ، مما يفتقر إلى التجرد للتأمل والتفكير والاستنتاج . وأعني بتلك الصبغة فيه أنه لا يتناول موضوعا ولا يرسم صورة إلا كان فيما يتناول وما يرسم فنانا أصيلا يواتيه الخلق والابتكار ، ولا يكاد يخطئه أو يخلفه . وبهذه الصبغة التي استيسرت له أصبح « طه حسين »

أغنى كتاب عصره عن أن يعلن اسمه بين يدى ما ينشر له . ذلك بأن أسلوبه طعما ومذاقا ، بله اللفظ والعبارة ، إنما هو أسلوب أديب فذ ، ينفرد بخصائصه ، ولا تخفى ملامحه ، هو أسلوب نابغة أدبنا العربى : « طه حسين » .

توفيق الحكيم

بدات القصة المصرية في بستان الأدب العربي نبتة ضئيلة المظهر تحاول جهد مستطاعها أن تشرئب وأن تزدهي ... نبتة غرسها نفر من ناشئة المدرسة الحديثة ، تسامت نفوسهم إلى إمداد أدبنـــا المصري بذلك الفن الطارف من فنون البيان .

وإن من الناس لمن كان يجوس خلال البستان ، فإذا لمح هذه النبتة في إهابها الغض ، لم يزد على أن يوليهـــا ابتسامة استهزاء وسخر ... وقليل أولئك الذين كانوا ينظرون إلى تلك النبتة نظرة التفاؤل والاستبشار ، ويقدرون لها في قابل الأيام مجد النماء والازدهار .

على أن نبتة القصة ما فتئت تتعلق بأسباب البقاء ، مغالبة عثرات الطريق على ضعف واستحياء . حتى كان يوم شاهد فيه رواد البستان في أصيص تلك النبتة المستضعفة زهرة فتية نضرة تتيه على غذنها الرطيب ، وتروع بمفاتنها الحسان ... ولم تكن زهرة البستان

إلا قصة « أهل الكهف » تحمل اسم « توفيق الحكيم » !

طبع من هذا الكتاب بادىء بدء مائة نسخة ، فى معرض أنيق من طبع جميل ، على ورق فاخر . وعرضت للبيع عشرات من هذه المائة غالية المهر . .

وتساءلت جمهرة من الناس ، وهم يمطون شفاههم فى عجب :

« أهل الكهف » ... وهل هى إلا أسطورة أكل الدهر عليها وشرب ؟ ففيم يبعث اليوم رفاتها فى هذا الكفن المزوق ، خدعة للأعين ، وتزويرا على الأفهام ؟

و « توفيق الحكيم » ... لمن يكون هذا الاسم ؟ إنه ليس له فى نوادى الأدب صوت ، ولم يسبق له فى الصحف ذكر ، وماذاع له فى معبد الفكر قربان !

أترى الرجل أراد بكتابه أن يزود أبهاء الضيافة وقاعات الاستقبال فى بيوت السراة بتحفة من تلك التحف التى تتناثر على المناضد ، تلهية للأنظار ، فى فترات الانتظار ؟ !

ولكن الكتاب استن طريقه إلى طائفة من أعلام الأدب الرفيع ، فراعتهم منه جدة فى الموضوع ، وعمق فى التفكير ، وقدرة على معالجة التأليف القصصى ، فى نطاق إنسانى المنزع ، يساير نهج الأدب الحى فى العالم المتحضر .

ربما أسرع أن تهادى قادة الفكر هـــذا النبأ السعيد : مولد ضوء جديد .

وتهافت القراء ينشدون الكتاب . فلم تسعفهم به السوق ...

وطلع على الناس عميد الأدب العربى « طه حسين » هاتفا « بأهل الكهف » مشيداً بتلك الوثبة الكبرى فى ميدان القصة الفنية ، فأثارت هتفة العميد تطلع القوم ، فتتابعوا ينفضون الأسواق ، سائلين : أين الكتاب ؟

وكان صاحب «أهل الكهف» فى مرقبته ، على حذر واهتياج ، طاويا جناحه على النسخة الباقية من الكتاب ، ينظر إلى ذلك كله بتينك العينين النفاذتين يسطع منهما البريق ...

ولما اطمأن إلى الأمر كل الاطمئنان ، واستوثق لنفسه كل الاستيثاق ، خرج من مرقبته يزجى الطبعة الثانية من كتابه إلى معشر القراء ، فإذا هم يتخاطفون نسخه ، فلم يكن بد من أن يطبع الكتاب طبعة ثالثة ، حتى ما بقى أحد من صفوة المثقفين إلا قرأ « أهل الكهف » فعرف « توفيق الحكيم » !

وكذلك كان لخروج « أهل الكهف » روعة المفاجأة ، وإنما لخصلة فى « توفيق الحكيم » أن يرتب ويدبر فى سر ، وأن يعمل جاهداً فى صمت ، حتى إذا أوفى على الغاية من عمله تجلى به على الناس.

يثير فيهم التطلع والتشوف ، ويستهوى نفوسهم فى إقبال وإعجاب.

ليس صاحبنا كمثل ذلك الذى يطهو ألوان طعامه برأى من الغادين والرائحين ، فهم يتشممون شذا الطعام حالا بعد حال ، ويتعرفون مذاقه على مراتب نضجه طيبا وغير طيب . . . ولكن صاحبنا الألمعى يريد نفسه على أن يخلو إلى قدور طعامه بنجوة من أعين الناس ، فلا يظهر للملأ إلا وقد أعد مائدته ناضجة الألوان ، موفورة الحظ من سبك وحبك ، ومن تنسيق وتنميق ...

تواردت كتب « الحكيم » يأخذ بعضها برقاب بعض، ولكنها متباينة الأنواع ، متجددة السمات ، لكل كتاب مذاق ، وعلى كل كتاب طابع ، فلا تكرار ولا إعادة ، ومن ثم لا تزهيد ولا إملال

كتب الرجل القصة على تخالف نطاقها : طويلة وقصيرة ، وعلى تعدد نوعها: تمثيلية وغير تمثيلية . ودون المذكرات واليوميات ، ودبج الفصول فى نقد الحياة والمجتمع ، وأرسل لوامعه الفلسفية فى أسرار النفس ، وحقائق الوجود ، فكان فى كل ما جرى به قلمه مصطبغا بصبغة وضاحة ، هى صبغة « الفكر » فى سبره لأغوار الحياة ، وفى توجيهه لتيار الرأى ، وفى تحليله لأحداث العيش ، وتعليله لتصاريف الناس .

فيما بين أعوام قلال ، تجمع إنتاج « الحكيم » فكان ضخما ،

وهو زبدة قريحة ، وعصارة فن . . . ولا غرو أن يتيسر ذلك لرجل شب شبابه موهوبا للأدب ، منهوما بالتزود من الثقافة .

احتوته « باريس » سنين من زهرة عمره ، فورد فيها مناهل الفنون يكرع ، المسارح تشغل لياليه ، والمحافل الموسيقية تتجاذبه ، وأشعة المعرفة فى مدينة النور تضىء له الطريق أنّى حل !

ولكأن هذه الحقبة من حياة « توفيق الحكيم » فترة التأهب والاستعداد ، ومهلة التدبير والاختطاط ، وفاتحة التمرس بالكتابة والتسجيل .

ولعل ما مزقه « الحكيم » فى هاته الحقبة مما كتبه أكثر مما أبقى عليه ، مستريبا بما صنع ، يائسا ممن يقرأ ، ضنينا بهذا الجهد أن يذهب سدى ، غير بالغ بصاحبه مأربة . . .

ولكنه لم يكن يملك إلا أن يكتب وأن يسجل ، وإن محا فى غده ما فرغ منه فى أمسه ، فقد كان محدوّا على أن يكون من أصحاب الأقلام وجماعة الكتاب بقوة خافية ماضية ، كأنها القضاء فى خفائه ومضائه !

كان مكتوبا على «الحكيم» أن يبلغ رسالة فى الأدب الحديث ، فسيق إلى أدائها غير مخير ، ولو لم يكن راضيا بأن يؤديها لفعل على كره .

ما كاد « الحكيم » يئوب من سفره : ويحل فى وطنه بين قومه ، حتى دأب على الكتابة والتأليف ، لا يعتاقه منصب من المناصب ، ولا تستأنى به مشغلة من مشاغل العيش . . . فطوى مع الأعوام مؤلفات مخطوطة ظلت فى خدورها رهينة الأدراج لا تنالها العيون ، فإذا خلا إليها فى محبسها لبث يناجيها ويسائلها :

ترى هل يتاح لها أن تسفر ، وأن تخرج إلى العالم الفسيح ، تتملاها الأنظار ؟

وإنه ليكون فى بعض أرجاء الريف ، يمارس عمله المرسوم فى حماية الأمن وتحقيق الجنايات ، فلا يحتويه بيته ، حتى يلتمس الأنس بتلك الأوراق التى يترقرق فيها نبع روحه وفيض فنه ، فيقلب الصحائف طائفة بعد طائفة ، يستمرىء ما فيها من غذاء ومتاع ، وهو عن كثب من النافذة يستنشى أنسام العشية الرطاب ، وما يزال ماضيا فى قراءة ما كتب ، حتى يملكه النوم على تلك الأهازيج . . . فإذا استيقظت الشمس ، بعثت إليه رسولها يميط عن عينيه خدر النعاس ، فيصحو وأوراقه على صدره مستلقية يحيطها بذراعيه ، فينفرج فمه عن ابتسامة استسلام ، ويستقبل يومه بما يحمل إليه من أعباء المنصب وتكاليف الحياة ، فيغادر الدار متأبطا حوافظ القضايا وأضابير التحقيق ، متوخيا دار النيابة ليعرض

أشتات الوجوه من خفراء وحجاب ، ومن أعيان وغير أعيان ، ومن متهمين على اختلاف الأشكال والألوان .

وتتعاقب حواليه المشاهد ، فإذا بيده تهرب من نطاق الأقضية والتحقيقات ، مختلسة وقتا بعد وقت ، لتسجل فى قصاصات من الورق صورا وخواطر ، يهدى إليها الفكر ، ويوحى بها الفن .

وحين يفرغ « الحكيم » من ساعات عمله ، يكون جيبه قد امتلأ بهذه القصاصات التى لا تمت إلى المحكمة بسبب ... ولكنها على مر الأيام تتخلق عملا أدبيا هو مخطوط جديد ، حظه من الحياة ذلك المحبس العتيد !

كمنت فى هذه المخطوطات ذخيرة من الحيوية واليقظة والحرية ، فعز عليها أن يلزمها صاحبها جانب الأسر ، وأن ينصرف عنها بما بين يديه من شئون حياته الراتبة ... فما هى إلا أن أزمعت هذه المخطوطات أن تثأر لنفسها مما تلقى ، وأن ترغم صاحبها على أن يعرف لها حقها من التفرغ والتعهد ، وجمحت بها الثورة عليه ، حتى أخضعته لسلطانها كل إخضاع ، فعصفت فى ثورتها بما له من وظيفة حكومية وعمل رسمى .

وتمخضت ثورة ذلك التيار الفكرى العارم عن « توفيق الحكيم » أديبا خالصا لأدبه ، خاليا لمخطوطاته ، ينشر منها ما ينشر ، ملقيا

بنفسه فى ذلك العباب الزاخر من جمهور القراء .

ومن أعاجيب الموافقات أن مؤلفاته ومخطوطاته التى قطعت بينه وبين عالم الوظيفة ، وأطارته من منصات القضاء وكراسى المناصب ، أبت أن تعيده موظفا بعد لأى إلا بين دفتى كتاب ، فإذا هو أخيراً « مدير لدار الكتب » ! .

لكل ظاهرة علة .. مامن ذلك بد ... فأية علة يا ترى ساقها القدر لتجلو عبقرية هذا الفنان وتبعثها على الإنتاج ؟

أما أنا — ورزقى على الله — فأقولها جهرة ... إن « توفيق الحكيم » بمؤلفاته وما أفاءت عليه من جاه الأدب ومجد الفكر ، مدين كل الدين بهذا الإنتاج الوافر وذلك الصيت البعيد لفنانة من أساطين الأفراح والليالى الملاح ، فى العهد الغابر ، تسمى « الأسطى حميدة » .

وما أدرى كيف كان التواصل بينها وبينه على وجه التحقيق ، ولكنى أعلم على يقين أنه لازمها فى شرخ صباه ، واستهواه من فنها اللحن والإيقاع ، فتعشق الموسيقى ما وسعه أن يتعشق ، وآثر صحبتها على كل صحبة .

وإنى لأتمثله فتى ضامر العود ، ضئيل الشخص ، تبرق منه عينان نفاذتان ملؤهما التطلع والشغف ، آخذاً مجلسه على مقربة من تلك

السيدة الطروب، وقد أخلد إليها يستمع بمجامع قلبه ، وهى تشدو في موكب من الأنغام .

ومنذ ذلك الحين تمكن حب المـــوسيقى من نفس « توفيق الحكيم» وملكت عليه النغمة أقطاريه ، فتسامى من أفق «الأسطى حميدة » إلى آفاق فنية رفيعة ، حتى أسلمه ذلك التصوف الموسيقى إلى روائع الأعلام من أمثال « بتهوفن » و « باخ » و « موزار » ، يبذل وقته قربانا لما تركوه من فن ، وتزودا مما أبدعوا من قدسى النغم !

وأكاد أقرر فى إيمان وثقة أن « الحكيم » لو لم يسعفه القلم بصريره ، فينفس عن نزعته الفنية الأصيلة ، لظفرنا به كوكبا لامعا فى أجواء الموسيقى والغناء .

أنت لا يعوزك أن تلمس خفقة الموسيقى تسرى فى آثار « الحكيم» مسرى الروح فى الجسد ... وإنه والقلم فى يمينه يصرف به موضوعه وفق مشيئته ، لكأنه موسيقار يتولى تحديد الوقع ، وتدبير اللحن ، وتنسيق الرنيم ، حتى يسود الموضوع توافق وانسجام .

على أن موسيقى « الحكيم » فى فنه الأدبى ليست تلك الموسيقى العابرة التى تثير هزة الطروب المعجول ، ولا يلبث أثرها أن يزول .

هى موسيقى عميقة تبتعث أخفى ما فى النفس من كوامن العواطف والنزعات ، وتحمل الروح إلى مجالات رحيبة من التفكير الخصيب .

« الإسكندرية » داره ، فيها نشأ ، وعلى شاطىء بحرها درج ، ومن « الإسكندرية » ورث خصال أهل الثغور : عزة واعتداد ، وهمة للسعى ، وإقبال على الغنم والاكتساب . .

انظر إليه فى مشيته ، وقد بدا مشرئبا ، ناهض الصدر ، مترنح الأعطاف ، حثيث الخطوة ، كأنه أبداً معجل يخشى فوات وقته المقسوم لإنجاز عمله .

يده تقبض على عصاه ، لا متوكئا عليها ، ولكنه يتخذها رمزاً لمظهر القوة فيها . . .

وعصا « الحكيم » تقول لك :

إن ما يبديه صاحبي من فتوة وقوة ، ليس إلا وسيلة يستر بها خلة الخشية والتحوط والحذار . وقد طبعت نفس صاحبي على أن يحذر ويتحوط ويخشى ، وقد نجلته مدينة البحر ، حيث الجو قلب ، وحيث الحياة تحدو على مغامرة وتطير ...

وإذا كانت المرأة نصف الإنسان على وجه عام ، فهى نصف « توفيق الحكيم » على وجه خاص ... وبرهان ذلك حبه التقليدى لها ، أعنى عداوته إياها !

يؤمن « الحكيم » بقوة المرأة ، ويعرف لها سطوتها ، ومن ثم يخشاها ويحذرها ويتحوط منها ، أو قل إنه يتطير بها ، اتقاء لما لها من فتنة وهيمنة وسلطان !

تخطىء الخطأ كله إذا لم تفسر تهوين « الحكيم » من شأن المرأة وإزراءه بها وتهجمه عليها بأن ذلك ليس إلا دفاعا منه عن نفسه ، وإلا تظاهراً بالقوة والغلبة ، لكي يعالج بذلك حفظ التوازن بين المرأة وبينه ، وبث الطمأنينة من جانبها في قلبه ، حتى يكون ذلك سبيلا إلى إخضاعها والظفر بها في يسر وأمان !

على أن « شهرزاد » في فطنتها الأصيلة لا يفوتها سر « توفيق الحكيم » ... فهي مزهوة بأن يكون ذلك الفنان العبقري مشغولا بمهاجمتها ، طاويا في إهابه شخصية العدو الحبيب !

العقاد كما أراه

لم يكن عجبي شديداً حينما قرأت ما رواه بعض كتاب الصحافة عن أسرة « العقاد » من أنهم لما فزعوا إليه ، فى ليلته الأخيرة ، وقد اشتدت به العلة ، ألفوا على وسادته كتابا كان يقرأ فيه ، موضوعه : «جيولوجية أفريقيا» .

فإنى كثيراً ما صادفت «العقاد» فى الصحوات، جالساً على مقعد فى هذه المكتبة أو تلك ، وبجواره ركام من أحدث ما ورد من الكتب ، فيطيب لى أن أقتحم خلوته بها ، وتصفحه لها ، وألق نظرة عليها ، فإذا هى خليط من أمهات المؤلفات فى الأدب أو الفلسفة أو التاريخ ، وفى فروع دقيقة من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية ، وإذا هو يصطفى منها ، لا ما يتصل باختصاصه الأدبى والفكرى وحده ، بل كل ماهو عميق دقيق فى بحثه ، وماهو جديد موثوق به فى موضوعه ، على تباين ضروب المعرفة وفنونها جميعاً . وما إن يظفر بطلبته منها ، حتى يمضى على الطريق بها ، متأبطا إياها

سامق الهامة ، باسق القامة ، عريض المنكبين ، متدفع اليدين ، تلتمع عيناه حزما واعتزاماً ، ويقتلع خطاه في سيره اقتلاعا .

لقد لزمت « العقاد » عادة المطالعة ، منذ عهد الحداثة ، حتى أصبحت له ديدناً لا يملك منه خلاصا . وعلى مر الأيام تأصل ذلك فيه ، وتمكن منه ، حتى صارت حياته حياة مكتبية محضة ، وقد أبى على نفسه أن يشوبها بمـــا يخرجه عن تلك الوحدة ، فعاش فرداً رهبانيا في صومعة القرائح والعقول ، وتيسر له بذلك أن يعتصر زبدة الفكر من أصفى منابعه ، وأن يتزود بها ، منتفعا بكل ما يقرأ من جد وهزل ، ومن قديم وحديث ، وأن يكون في هذا المجال إنساني الروح ، عالمي النظرة ، وأن يتمثل ذلك كله كما يتمثل المرء الغـــذاء ، فإذا هو دم يجري في الشرايين ليهب القوة والفتوة ، فلا غرو أن تتجلى شخصيته كأنمـا هو موسوعة عربية ، أو مَعْلمة بشرية ، وأن تتسم مؤلفاته وفصوله بسمات الدرس والتمحيص وسعة الاطلاع ، وتعبر عن ارتباط متواصـل بالثقافة المتطورة المتجددة في شتى الآفاق .

و « العقاد » الذي كان يمثل في مفتتح نشاطه الأدبي والفكري منازع الثوار على القديم في جميع مظاهره ، والدعاة إلى الثقافة العصرية بكل معانيها ، كان مع ذلك من الفاقهين لعلوم العربية التي لا يعنى بها

إلا أهل الاختصاص والدارسين للتراث العربي أدبا وفكرا وتاريخا وحضارة ، فلم تكن ثورته على القديم إلا ثورة على التخلف والتوقف والجمود ، ولم تكن دعوته إلى الجديد إلا وصلا للماضي الأصيل بالحاضر المشهود ، وإمداداً له بما يعينه على السير في ركب الحياة إلى أمام .

وإذا كان لكل كاتب عيب يتوضح في آثاره ، فالعيب الجلي في كتب «العقاد» أنها لا تصلح أن تزجي وقت القارىء قبيل النوم ، حين يتكىء على الوسائد . حتى إن كتابه «سارة» ـ وهو قصة فنية ـ يتعاصى على هذا الغرض ، لما فيه من تحليل عميق للنفس البشرية يثير اليقظة ويشرد عن العيون ترنيق المنام ، فإن انخدع قارىء بكتب «العقاد» فاتخذ أحدها للتسلي بالقراءة قبيل نومه ، لم يلبث أن يطيب له الأرق ، وأن يستبدل بمتعة الرقاد متعة الاستغراق في عباب الفكر .

ولست أغلو في القول بأن المرض الذي ألم بالعقاد في ريق شبابه ، كان له الأثر العظيم في تكوين حياته ، وإبراز طابعه ، وقد اضطره المرض أن يحيا حياة عزلة واعتكاف ، فانفسح المجال لميوله الأدبية ، كي تشبع نهمها إلى القراءة والدرس في ذلك المعزل ، ومن

ثم أقبل « العقاد » يعب من فنون البيان ومناحي الثقافة ما ساغ له أن يعب .

وكان من أثر الاحتجاز فى صومعة القراءة والدرس أن تمكنت فى خصائص «العقاد» ملكة التأمل فى الحقائق، والتعمق فى الأفكار، فاكتست فصوله تلك الصبغة من أسلوب رصين، وتفكير دقيق، وإحاطة شاملة .

وهذا المرض كان من أثره أيضاً أن استقر فى قلب « العقاد » حب الحياة ، والتشبث بها ، والكفاح فى سبيلها . فإنه لما واتاه الظفر فى عراك المرض ، ازداد تعلقا بالحياة ، ورغبة فى التمتع بأطايبها ، فكرم نفسه ونعمها ما وسعه التكريم والتنعيم . وكان من عقبي ذلك الظفر أنه أورثه زهواً وعزة وثقة بالنفس ورهافة شعور بالكرامة ، وأذكى بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة والإصرار ، فتجلى فى حياته وفى إنتاجه هذا اللون من القوة والصلابة والصراع .

لقد وصف «العقاد» فى حياته بأنه الكاتب الجبار ، وعرف فى مساجلاته بأنه عنيد عنيف . وإنه لمطبوع حقا على العنف والجبروت ، منذ نشأته ، فقد رسم لنفسه خطة فى الحياة ، وأنفذها

كما رسمها ، متخطيا فى عصاميته التعليمية والتثقيفية كل عقبة ، وكأنه ينظر إلى « المتنبي » فى قوله :

أريد من زمنى ذا أن يبلغنى   ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

وأنت لذلك ترى الصرامة والجد طابعا بارزاً فى أدب «العقاد» فالفكرة عنده لها أصالتها من المنطق ، والجملة بنيان مرصوص ، والكلمة فى الموقع الذى يكفل لها الجلال والخطر . فأدبه صورة صادقة لسيرته ، وهو فيما يكتب كأنما ينقل لنا مشاهد صحيحة من حياته العقلية والنفسية فى صومعة مكتبته التى أولاها كل تقديس ، وجعلت منه شابا وقوراً فى عصر الشباب ، وشيخا نشيطا حين بلغ سن الأشياخ .

كان من جبروته فى خاصة أمره ، ومن عنفه بنفسه فى مجرى حياته ، أنه لم يرض السير فى طريق معهود مألوف ، لا بوصفه شاعراً وكاتباً ، ولا بوصفه ناقداً ومؤلفاً ، ولا بوصفه مترجماً لأقطاب الأدب وقادة الفكر وعباقرة الإصلاح . . . فهو بين معاصريه فى كل أولئك طراز وحده ، مجدد بالدعوة يجهر بها ، مجدد بالنقد يدأب فيه ، مجدد بالنماذج يقدمها ، وهو فى جملة أدبه صاحب مبادأة وخلق وابتداع .

كان شاعراً . . .

عبر عن عواطفه إزاء الأحداث التى كان لها رنينها وصداها فى نفسه، ومع الشخصيات التى اتصل بها من قرب أو من بعد، فإن شئت أن تقيس شعره بأوضاع الشعر العربى، فى متانة النسج، وفصاحة اللفظ، وإحكام القافية، فلن تخرج من القياس بما يباعد بين «العقاد» وبين فحول الشعراء من قدامى ومحدثين. ولكنك بعد ذلك واجد فى شعره وثبة تجـــديد فى أنماطه وموضوعاته وأغراضه. وعلى الرغم من الطابع التأملى الفلسفى فيما نظم فإن فى كثير من قصائده ومقطعاته نفحات شاعرية مرهفة، تنبض بخوالج إنسانية رقيقة.

وكان كاتبا . . .

جرى قلمه فى أدب ونقد، وفى سياسة واجتماع، فانفسح له مكان فى الصدارة مع الكتاب الذين خرجوا بالمقالة العصرية من إطارها الإنشائى، وزخرفها اللفظى، ومعانيها المرددة، وأفكارها المحدودة، وسموا بها إلى مستوى رفيع من البيان، فيه يبرز الرأى، ويسود المنطق، وبه يتحقق الإقناع والتأثير فى الأداء والتعبير. ولقد خاصم «العقاد» وخوصم، وجادل وجودل، وما أحسب أن اثنين يختصمان أو يجادلان فى الشهادة «للعقاد» باقتدار قلمه على أن يصوغ مقاله، كما يسوى الفنان برقه تمثاله . . .

وكان باحثا مؤلفا ...

فلم يكن يقنع في بحثه وتأليفه بجمع المعلومات، وسياقة الآراء وعرض الأفكار، ولم يكن يعول على النقول من المصادر والأسانيد إلا حيث لا محيص من الاستشهاد والتدليل، ولكنه كان يجعل من الموضوع الذي يتجرد لعرضه بناء خاصا به، وفي البناء تكمن ذخيرة ثقافية عامرة، وتتجلى إحاطة بجوانب الموضوع وما دار حوله من درس وتمحيص، فكل كتاب له لا يعدّ بسطا أو شرحا، أو تعليقا على مقررات سابقة، بقدر ما يعد خلقا فنيا له جدته وله خصائصه في الشكل والموضوع على السواء.

وكان مترجما مؤرخا ...

وفي عبقرياته وغيرها من تراجمه للأعلام من قادة وأدباء، استطاع أن يسلك نهجا غير النهج الطبيع المعهود، من سرد مراحل الحياة، والكشف عن أهم الأحداث، فهو حين يرسم الشخصية التاريخية، يكوّن في شأنها فكرة أساسية، هي محور تلك الشخصية ومدار سلوكها في الحياة، وأثرها في البيئة. وهذا المحور يهتدى إليه هو في بحثه ودرسه، فيكشف عنه كما يكشف الغواص عن لؤلؤة مكنونة في صدفتها، أو كما يكشف الطبيب بتشخيصه عن علة هي السر فيما يبدو من ظواهر وأعراض. وهو في استنباطاته لسرائر

الشخصية وتقييم أعمالها لا يستسلم للأحكام التي يتناقلها التاريخ ، بل يتوسل إلى صحة التقدير وإصابة الحكم بتحليل دقيق في ضوء من الحقائق النفسية والاجتماعية للسلوك الإنساني والجماعي ، وملاحظة لمقتضيات البيئة وما يكتنفها من أحوال وملابسات .

والذين طالعوا كتابه « ابن الرومي » واستخلاص حياته من شعره ، أدركوا أول وهلة يوم صدر أنهم إزاء محاولة جديدة في دراسة الشعراء ، على هذا النحو ، فقد علل عبقرية الشاعر ، وأوضح ما لها من خصائص ، وخرج منها بنتائج خليقة أن تبعث على النظر والتدبر .

وكذلك صنع « العقاد » حين عالج الترجمة للشاعر « أبي نواس » فلم يخدعه شعره عن بواطن شخصيته ، فوضعها تحت مجهر نفاذ ، وعرض سلوكه على نظريات لها وزنها في علم النفس ، فاستبانت له بذلك حقائق في رسم الشخصية النواسية ، وتعليل مسلكها في العيش ، وتعليل ما تجلى فيها من طرافة أو شذوذ .

والحق أننا لو التمسنا كاتبا عصريا ينطبق عليه ما وصف به « ابن العميد » أديب العربية القديم « الجاحظ » ، لكان « العقاد » أديب العربية الحديث خير من ينطبق عليه ... فيما رأيت — ذلك الوصف الذي أوجزه « ابن العميد » في قوله :

« كتب الجاحظ تعلم العقل أولا ، والأدب ثانيا »

محمد فريد أبو حديد

فى اسمه ما يحمل خصائص مسماه ، فإن اسم « أبى الحديد » يشعرك بالقوة والصرامة ، وإنه حقا لرجل صلب العقيدة ، شديد المراس ، يتجلى الوقار فى سمته وشارته ، وتشيع الرزانة والاتزان فيما يجرى به قلمه ، فإذا تحدث إلى صاحبه فى مجلس ، أو خاطب مستمعيه فى منتدى ، كان الجد أظهر سماته ، وإن إنتاجه الضخم المنوع فى الكم والكيف ليدلك أوفى الدلالة على مافيه من عزم وجلد ، وعلى ما أخذ به نفسه من مثابرة ومصابرة ، وعلى ما طبع عليه من روية وأناة .

ومما تميزت به شخصية « أبى الحديد » روح الاعتدال والتعقل والحكمة ، فأنت تكاد ترى فيه قاضيا أريبا حصيفا ، لا يركن إلى رأى إلا عن تفهم وتثبت واقتناع ، فإذا عبر عن رأيه لم تجمح به عاطفة ، ولم يغل فى قول . ولعل فيما أكسبه هذه الخاصة أنه رجل تربية ، وما أشبه المربى والقاضى فى جملة من الخصائص التى لا بد منها لكى يؤدى كل منهما رسالته فى مثلها الأعلى ، ولعل دراسته الحقوقية

كذلك أمدت دراسته التربوية بما زاد هذه الخاصة فى طبعه تأصلا وازدهاراً ، فكان سلطانها على حياته الأدبية ، إلى جانب حياته العامة ، عميقا كل العمق ، ناصعا غاية النصوع .

وليس من ريب فى أن تلك الخاصة هى التى نأت به عن أن يكون له فى المعارك القلمية بين الأدباء والنقاد مشاركة ملحوظة ، فما كان « أبو حديد » من أولئك الذين يولعون بالمساجلات والمصاولات حول قضايا الفكر والأدب ، وما عرفناه يقحم نفسه بين أطراف الخصومة فى هذه القضايا يمنة أو يسرة ، على حين أنه فى الطليعة من رواد المذاهب الفكرية والاتجاهات الأدبية فى عصرنا الحديث ، وأن له فى هذه الريادة أثراً خصبا يتمثل فى إنتاجه الموضوعى الفنى ، وفى تأييده النظرى للمبادىء النقدية التى بها يؤمن ، وإياها يعتمد . وهذه مؤلفاته القصصية وغير القصصية ترسم منهجه ، وتلك فصوله وأحاديثه تؤدى أمانة النقد على خير ما يؤديها ناقد مكين .

إذا قرأت له مؤلفا قصصيا أدركت أول وهلة أنه كاتب لا يترك قلمه طلقا على سجيته ، قانعا منه بعفو الخاطر ، وفيض البديهة ، ولكنه يختط لعمله الفنى خطة محبوكة ، ويصور شخصياته بدقة مقصودة ، ويجعل لسعيه غاية بعيدة ، وذلك لا يتسق إلا لأديب

أوتى الموهبة ، فلم تهتز أعطافه غروراً بها ، ووقوفاً عندها ، بل آثر اكتساب المعرفة الوافية الواعية بأنماط الأدب وطرائقه ، وصبر نفسه على الدراسة المتعمقة لفن القصة فى أروع ما كتب منه وما نقد به ، على تعاقب العصور ، فى شرق وغرب .

نلمح هذا كله مطويا ، يكشف عنه ما تطالعك به مؤلفاته ، فإن مضيت تقرأ له بعض ما كتب من فصول وما ألقى من أحاديث ، عرفت صراحة أى ناقد صحيح الرأى ، دقيق الملاحظة ، وأى أديب واسع الاطلاع ، وثيق المعرفة ، ذلك الذى يلقى دروسا نقدية غالية فى صورة فصول مرسلة ، وأحاديث عابرة .

وقف فى « مجمع اللغة العربية » ينوب عنه فى تتويج إنتاج كاتب — أنا به أعرف من سواى — فرأيناه يسترسل فى عرض أدبى نقدى لتاريخ القصة وتطورها ، عرض يستخلص لك أدق المعانى والأفكار ، فيصف الأديب بأنه « رائد البشرية » ، ويقول :

«كان الإنسان منذ القدم يتجه بفكره إلى جانبين من الوجود : جانب الأشياء ، وجانب الحياة ، وكانت عدته فى هـــذا البحث المزدوج طوائف من رواد الإنسانية الذين كانوا يسيرون فى الطليعة بما وهبهم الخالق من ذكاء وإلهام ، فكان رواد البحث عن الأشياء

هم العلماء ، وكان رواد البحث عن أسرار الحياة الإنسانية هم الأدباء بالمعنى الأوسع الذى يشمل كل أصحاب الفكر والتعبير منذ بدأت حياة العقل فى الإنسان » .

ويصور لك مكان القصة من الأدب الحديث ، فيقول :

« القصة فى صورتها الحالية ليست سوى نمو حديث فى الأدب العالمى ، وإنها طارئة عليه بعد أن مهدت لها المطابع واستعدت لها الشعوب منذ أصبحت مقدرة القراءة شائعة بين الناس . وليس القصص الحديث شيئاً آخر سوى المظهر الأخير للرائد الإنسانى الذى كان منذ القدم يتدسس فى الطبائع الإنسانية ويكشف الغطاء عن أسرارها ، متصلا بها ، مستجيبا لها ، مهتزاً بما يكشفه منها ، متغنيا بما يلمحه فيها من الجمال والسمو ، باعثا روحه فى أنغامه الشجية ليملأ بها القلوب ويجلو بها البصائر » .

ويعرف ما يعنيه بالأدب ، موضحا ما بين الأدب الإنسانى والأدب القومى من صلة ، فيقول :

« إذا تكلمنا عن الأدب ، كان حديثنا دائما عن الإنسانية ، لأن الأدب لايعرف حدود الدول ، ولكننا مع ذلك نعرف أننا جماعة من الإنسانية ، نحن نحس بأنفسنا ونعرف أننا وإن

كنا بشرا فى محيط الإنسانية الجامع، فنحن أمة من البشر فى محيطنا الأدبى ، وإذا كان الأدباء من كل الألوان والأمم واللغات يطيعون وحى إلهامهم فى خدمة الإنسانية المجردة ، فإن لكل أمة أن تفاخر بما أنتج أبناؤها فى تلك الخدمة الكبرى » .

ويقف بعد سنوات نائبا عن المجمع فى تقدير قصص نالت جوائزه ، فيفرغ بجهده أو يكاد لبيان الضوابط التى تدرك بها أسرار البلاغة فى فن القصة ، فمن هذه الضوابط : تصويرها للشخوص تصويرا واضحاً بحيث يكونون عالما صادقا نابضاً بالحياة ، ومنها : تصوير ما يحيط بهؤلاء الشخوص بحيث يجعل عالمهم الذى يعيشون فيه ممتلئا بهم ، حتى يحمل القارىء على أن يعيش معهم فى ذلك العالم الواضح الملىء ، ومنها : أن تكون القصة مشبهــة للحياة فى دلالاتها دون تكلف أو تلفيق أو تظاهر ، فكلما كانت الحركة أكثر مرونة كانت أقل ضجة وجلبة . ورأس الضوابط جميعاً : أن يكون للقصة موضوع فيه من المواقف الإنسانية ما يقف عنده العقل للتأمل . فامتياز الأديب فى وقوفه عند الزوايا التى تتضح له فيها معانى الحياة الدقيقة ، فإذا ما نقلها إلى القراء تجاوبوا معه .

والأستاذ «أبو حديد» كاتب ثائر لعروبته ، غيور على قوميته ، يطبع نزوعه الوطنى الصميم أعماله جميعاً ، بيد أنه استطاع أن

يعصم نفسه فى هذا التيار العاطفى الجارف من التهافت والتهور . فثورته وغيرته وليدة إيمان صادق ، وحمية باطنة ، لا تعبر عن وجودها برفع الصوت وقرع الطبل ، ولكنها تستحيل طاقة فكرية دافعة ، وقوة أدبية عارمة ، تستعين بأمجاد الماضى وأوضاع الحاضر وأمانى المستقبل ، لتعمل على إيقاظ الروح القومى وإنعاشه ، وتفنى فى تزكية المثل والأهداف المرموقة لإحياء أمة حرة فى وطن كريم .

ومن مظاهر هذا النزوع عنده تأثره البالغ بالأدب الشعبى الذى هو صورة صادقة للنفس البشرية ، وتمثيل لما يحس به عامة الناس من آلام وآمال ، وإنه ليصف لنا الشاعر الشعبى صاحب الربابة يوم استمع إليه وهو شاب بعد ، فيقول : « كان ينشد كأنه يحدث نفسه بحلم يراه خلال سنة من النوم ، أو يناجى أطيافا تظهر له من عالم مستور ، تهتف له بأسرار الإنسانية التى مازالت منذ القدم تملأ البشر أملا وتجعل لحياتهم مقصدا » . وهو يهدى إلى ذلك القصاص الشعبى المنشد فريدة من فرائده ، هى قصة « الوعاء المرمرى » فيقول : « إنها تحية للشاعر الذى مازالت صورته ماثلة فى الذكرى ، لا يذكر أحد أن أناشيده القوية الوثابة كانت تحرك قلوب طلاب الحرية نحو عزمات الغد الطالع من ضمير الغيب ، فهذه القصة هى بعض الأصداء

الباقية فى القلب من تلك الأناشيد البارعة التى كانت القلوب تتجارب لها ، عندما كانت الأيدى تسخو بقليلها ، والقلب يجود بكثيره ، عندما كانت الصور والمعانى أثمن وأكثر قوة من الحقائق والمادة ... »

والأستاذ «أبو حديد» فوق ذلك كله من أولئك الذين هيأتهم ملابسات النهضة الحديثة فى مطالع هذا القرن ليكونوا رسل تجديد ودعائم تطوير للأدب العربى، واتجاه به إلى مستوى يساير به تطور الأدب العالمى ، فهو من الصفوة الذين بشروا بالأدب القصصى، ورأوا فيه الصيغة الجديدة للتعبير الفنى عن الحياة والمجتمع، وأذكر أنى قرأت له منذ نصف قرن أو نحوه قصة « مذكرات محمد » تلك التى كتبها وهو فى زهرة عمره ، وقد ترادفت بعد ذلك مؤلفاته القصصية تكشف عن أستاذية متمكنة فى هذا المضمار ، وتعمل على تأصيل ذلك الفن العصرى المستحدث فى أدب العروبة على أوضاعه السليمة .

وقد برزت معالم التجديد القصصى فى مؤلفات «أبى حديد» فى جانبين : أحدهما موضوعى ، والآخر شكلى .

ففى الجانب الموضوعى وقف فى محاريب التاريخ العربى يكتنه ما فيه من بطولة ، ويستلهم منه كرائم المعانى الإنسانية التى يأنس

فيها عصرنا الحاضر ما يطهر به نفسه ، ويقوى به طموحه ، ويبصره بأسباب القوة والمنعة والعزة فى معركة الحياة ، فليس القصص التاريخى أو التاريخ القصصى عنده تمثيلا محضاً للماضى ، ولا تحليلا مجردا لما جرى فيه ، ولكنه وصل بين الماضى والحاضر ، وصل يقوم على تعرف الأسباب الوثيقة بين الإنسان فى أمسه البعيد ويومه المشهود .

وأما تجديده فى الجانب الشكلى ، فهو محاولته الرشيدة أن يخرج بالشعر العربى من سجن القوافى الملتزمة والأوزان بوحداتها المألوفة إلى أفق الحرية والانطلاق ، وذلك لكى يستطيع الشاعر العربى أن يصوغ الملاحم والتمثيليات ، وما هو بقادر على ذلك إذا لم يتحرر من قيد التزام القافية وقيد الاستمساك بالوزن المتعارف المأثور ، وما أحوج أدب العروبة إلى أن يكون حظه من الشعر الملحمى والتمثيلى غير منقوص .

وإذا جاز الحكم على أدب « أبى حديد » فى كثير مما كتب بأنه أقرب إلى الأدب الهادف ، فلاشك فى أن الهدف فيه ليس كل ما يحتويه ، ولاشك فى أن فنه لم يقف عند الظواهر ، ولم يكتف بالحدث العابر ، ولم يكن كذلك بالأدب الذى يشوبه الفرض والاجتلاب ، فالحياة فى قصصه تتحرك كما تراها العيون ، والأحداث

تتطور وفق السنن الطبيعية الجارية . والموضوعات التي تتدفق فيها تلك الحياة ، وتدور حولها هذه الأحداث ، موضوعات لاتباين النفس البشرية فيما لها من غرائز ونزعات ، فلا ضـــير على الفن القصصي من الهدف القومي أو الاجتماعي متى استطاع الكاتب أن يعلو في موضوعيته على نطاق الخطابة والموعظة ، أو الدرس والتعليم ، ويخلص بعمله إلى أن يكون أدبا فنيا له بالحياة سبب وثيق ، وبينه وبين الإنسان نسب عريق .

وإن من المناصب لما يسعد بمن يتولونه ، إذ يضفون عليه من جاههم أضعاف ما يسدى إليهم من الجدوى . وكذلك الجوائز ، فرب جائزة تشرق هالتها بمن تهدى إليهم من الأكفاء ، ولامراء في أن أكفاء جائزة الدولة التقديرية في الأدب سواء منهم من سبقت إليهم بالأمس ، ومن سوف تلاحقهم في الغد ، يأنسون بزمالة « أبي حديد » لهم في هذه الجائزة الرفيعة ، ويجدون في أنفسهم لذلك أجمل معاني الإعزاز والتكريم .

عزيز أباظة

جميل أن نلتقى الليلة فيما يشبه «سوق عكاظ» لتكريم شاعرنا العربى العروبى «عزيز أباظة»، على أثر تكريم الدولة له بالجائزة التقديرية فى الأدب. فإن التقاءنا على هذا النحو فى مجتمعنا الأدبى هو رجع الصدى لذلك التكريم الرسمى، وهو فى معناه إعراب عن الترحيب بهذا التقدير، وإحاطته بهالة من التأييد والتعزيز.

على أن هذا التكريم المزدوج، أو التقدير الجامع، لشاعرنا «عزيز أباظة»، ليحمل جملة من الدلالات، أجملها فى كلمات.

فالأستاذ «عزيز أباظة» سليل أسرة اتصلت وشائجها بالأدب، وكان اتصالها به أنفس ما يرثه أخلافها عن أسلافها من الحسب. وفى خلال مائة السنة الماضية، كان من الأباظيين من يغرم بحفظ التراث العربى ولم شتاته، ومن يأخذ بناصر النهضات التى تعمل على إحياء هذا التراث التليد العتيد، وقد عرفنا من كبرائهم من كان يجمّل حياة الأدباء بأسنى الحفاوات والرعايات. أجل، كان

أولئك الأباطيون يعرفون لشيوخ الأدب أقدارهم، ويمدون لناشئته ظلالهم، وما زالوا كذلك حتى نجم من صميمهم من شرّف بنبوغه الأدب، ومن أنس بزمالته الأدباء . . . فإذا كرمت الدولة اليوم «عزيز أباظة»، وإذا نحن اجتمعنا الليلة فى مناسبة هذا التكريم، فإننا جميعاً نرد بذلك بعض الفضل إلى أسرة سبقت إلى الفضل كله فى عهود كان الأدب فيها مغموط القدر، مغمور الذكر، وكان الأدباء فيها لا يعرفون لهم فى سوق الحياة الكريمة من نصيب .

ليس هذا وحده، كل ما يحمله تكريم الأستاذ «عزيز أباظة» من الدلالات . فالحق أن تكريمه ينصب أكثر ما ينصب على تلك الخطة التى اختطها لأدبه، وصرف إليها معظم جهده، ووفق فيها توفيقاً أحسبه لم يتح لسواه . فنحن إذا نظرنا إلى مسرحياته، وأذكر منها «قيس لبنى» و «العباسة» و «الناصر» و «شجرة الدر» و «قافلة النور» ألفيناها فى مجموعها تستلهم أمجاد الحضارة العربية، وأحداث تاريخها الجسام، وتتجه فى روحها وفلسفتها وجهة التعبير عن القومية العربية بما لها من أواصر تصل بين العرب فى كل مكان، وتزكى فى نفوسهم ما لهم من شخصية مستقلة بقوامها على مر الزمان . وبهـــذا مثل شاعر المسرحية الكبير فى أعماله الأدبية الرائعة، تلك البيئة العربية والشيمة العربية، تمثيلا يقوم

على التحليل النفسى والتصوير الفنى ، فكانت جلاء لصفحات من تاريخنا المشرق، وبهذا أيضاً سجل استجابته الواعية لأسمى ما اعتلج بين جوانح المجتمع العربى من مشاعر وأهداف . . . فإذا كرمت الدولة اليوم « عزيز أباظة » ، وإذا اجتمعنا الليلة فى مناسبة هذا التكريم ، فإنما نكرم فيما نكرم معنى الوفاء للقومية ، ومعنى البر بأمجاد العروبة ، فى مسرحيات تجمع بين جدة الفن ، وروعة الأدب ، وأصالة التاريخ .

وثمة دلالة أخرى ، لعلها أولى الدلالات بالتقديم ، تلك هى أن شاعرنا « عزيز أباظة » أجدر الناس بأن نلقبه بلقب « النابغة » فقد انبثق بين الشعراء كما تنبثق عين الماء جارية بالعذب الفرات . فاجأ معاصريه بشعره ، وقدهدف إلى الأربعين أو جاوزها بقليل، فإذا هو شعرفخم جزل أصيل ، لاتعوزه مراحل الدربة والتجريب ، وإذا هو فى ديباجة ترقى إلى عليا طبقات البلاغة العربية لفظاً وأسلوبا ، إلى ذوق عربى مصفى فى انتقاء المـأنوس من الكلم ، والتنكب عن المجفو من التراكيب . وما أسرع أن لمع اسمه،وسطع نجمه ، وسبق إلى الصف الأول من شعراء عصره ، متخطيا من كانوا يطالعون الناس بأشعارهم قبله بسنين . وما هى إلا أن أصبح له فى تأصيل الأدب المسرحى الشعرى باع مديد ، فلقد رعى نبتة

القصة الشعرية التى وضع « شوق » من قبله غراسها ، فزكت على يديه ، وازدهرت أى ازدهار ، وأخرج منها تلك النماذج الفنية الممتازة التى تدل على خبرة بمطالب التأليف المسرحى ، وتكشف عن بصارة ورهافة حس بما تنطوى عليه الأحداث من قيم ومثل إنسانية ، إلى جانب عرضها لمشكلات اجتماعية يتشابه فيها الأمس واليوم ، ويتصل فيها الماضى بالحاضر . . . . فإن نحن كرمنا نابغتنا « عزيز أباظة » فإنما نكرم النبوغ الذى تهيأ له ، والجهد الدائب الذى صبر نفسه عليه . والأمة التى تحتفى بنوابغها تعبر عن عرفانها لأعز ما تجود به الأيام على الأمم من عطايا وهبات .

وحسبنا أخيراً من تكريم الأستاذ «عزيز أباظة» أنه سنّى لنا الالتقاء فى هذا المهرجان الكبير . وما يدرينا لعله موعد مع القدر لمولد نابغة جديد بيننا ، ممن نسمع لهم أو يسمعون لنا ، كما كانت «سوق عكاظ» فى عصر العربية الأول : مَلهبة للقرائح والملكات ، مَنْبهة للشعر والشعراء .

خليل مردم

قبل عشر من السنين ، كنت فى زورة «للبنان» ، ألتمس عندها راحة من الكد فى شتاء مضى ، ونجوة من القيظ فى صيف حضر .

وطابت نفسي بما قضيت هنالك من فترة استجمام وأنس بالحياة فتشوقت إلى أن أزور «دمشق» ، وأن أجدد العهد بمن ألفت فيها من صحابة الأدب والفكر ، وأن أتعرف بمن لم أسعد بمعرفتهم بعد . وكان فى طليعة من هفت النفس إلى رؤيتهم يومئذ شاعرنا المتفرد «خليل مردم» ولسان حالى يناجيه بقول شاعر مثله :

أجدَّ لنـــا طيب المكان وحسنه

منى ؛ فتمنينا ؛ فكنتَ الأمانيا

هدانى طريق إلى داره أحد الرفاق ؛ فلما أقبلت عليها انتشيت بما يسطع فيها من عطر شرقى أصيل ، وما يكسوها من طابع عربى صميم . فإن هذه الدار لتمنح العين والروح متعة استشفاف الأطياف المحببة من تلك الأجواء التى تحف بالخواطر والأذهان ، وتحف

بها إلى حيث تتمثل لنا ذكريات ماضينا العزيز .

ما وطئت قدماى عتبة الباب ، حتى صافحت سمعى أول وهلة نغمة هفهافة لطيفة ، إنها قرقرة ماء ، سرعان ما استبان لى مصدرها ، فقد لاحت لعينى ، وأنا أجوز المدخل المسقوف ، مخايل خضرة نضرة فى فناء يمشى فيه جدول ماء على استحياء .

كان الأصيل قد لم أذياله ، وحانت ساعة الغروب تحمل بوادر عتمة العشى ، فتضفى على الدار مزيداً من سكينة وهدوء .

حللت منظرة الضيوف ، واستشعرت من فورى خشوعاً رفيقاً يملأ النفس من طمأنينة وصفاء ، خشوعاً يشبه ما يستشعره المؤمن حين يؤم بيتاً من بيوت العبادة ، أو ما يستشعره الأديب المتذوق حين تتأدى إليه روحانية بيت من أبيات الشعر .

بعد قليل تناهت إلينا خفقات خطو هين راتب ، وإذا رب الدار يهل علينا فى سمته الوقور ، وعلى محياه ابتسامة وادعة ، وما أسرع أن تبادلنا التحايا يعبر بها كلانا لصاحبه عن شوق أيما شوق .

ذلكم كان لقائى الأول المرحوم « خليل مردم » ، وذلكم هو آخر ما كان بيننا من لقاء . ولكأنى بالقدر المغيب قد دبر لى أن ألقاه ذات يوم هذا اللقاء الفذ ، لكيما يزداد إحساسى بلوعة

الفجيعة فيـه يوم منعاه ، ولكنها تتوهج فى مخيلتى صورته كلما خطرت لى ذكراه ، إذ ينازعنى إليه ما أقره ذلك اللقاء الفذ فى نفسى من ألفة به ومودة له وإعزاز .

على أن التلاقى بالمشاهدة والعيان ليس هو كل شىء فى علاقات الصداقة بين رفقة القرطاس والقلم ، فثمة لقاء موصول بينهم أعمق أثراً فى تعريف بعضهم ببعض ، وفى توثيق تلك الأواصر بين أرواحهم وما تناغت به خواطرهم على صفحات الكتب ، وفى التقريب بين أشخاصهم التى تتمثل فى مخيلاتهم على القرب والبعد، ولعل الشخصية فى هذا العالم الخيالى الشامل الطليق أصدق أنباء وأجل خطراً وأطول بقاء على الزمن الممدود .

حين لاقيت «خليل مردم» فى تلك الجلسة التاريخية ، أحسست أن هذا المحيّا الهادىء الجياش بالمشاعر البعيدة الغور لم يكن غريبا عنى ؛ وأن تلك السمات التى ألمحها فى حديثه ليست جديدة علىّ . بل إن ذلك الصوت الرصين الخافت الذى يتميز به أصحاب الشعور المرهف والتفكير الدقيق قد التقطته أذناى من قبل . فما كل أولئك إلا معالم كانت تترسل إلى نفسى كلما طالعت شعره الحافل بشتى النوازع التى تكشف عن روح صوفية شفافة تتجلى لها سرائر الحياة .

حقا ، كنت صديقا لخليل مردم، قبل أن أراه . فلما حظيت معه بتلك الجلسة الصافية التي لم تستغرق إلا ساعة وبعض ساعة . وهو يتحدث إلىّ في فنون الأدب والثقافة ، وجدت في حديثه مصداق تلك الشخصية التي عرفتها له في شعره .

لقد استبانت لي فيه خلتان مميزتان متكاملتان ، تدعم إحداهما الأخرى . أما الخلة الأولى فإيمان بالعروبة راسخ لا يعلو عليه إيمان . وأما الخلة الأخرى فالحفاظ على التقاليد الشرقية في إصرار ليس وراءه إصرار .

كان كل عرق فيه ينبض بهاتين الخلتين: جهده عليهما موقوف، وحماسته في سبيلهما لا تفتر . وآية ذلك ما خطه من دراسات في الأدب ، وما نهض بتحقيقه ونشره من ذخائر الكتب . بل إنه في شتى مناصبه العلمية في المجمع العربي ،ومناصبه السياسية في الدولة ، كان يمثل تلكم الخلتين في مختلف مظاهرهما القوميـــــة واللغوية والأدبية على السواء .

لم تكن عروبيته أو شرقيته عن جهالة أو تعصب أو جمود ، فذلكم رجل تنوعت مناحي ثقافاته ، وتعددت أسفاره ورحلاته ، تعلم من اللغات الأجنبية ما تعلم ، وأفاد من الاطلاع ما أفاد ، وعرف من أنماط الحضارة الفكرية والاجتماعية ما يوسع أفق

الذهن ، ويفسح مجال الرأى ، ويهب قوة التـــأثر والاختيار والاقتناع ، فإذا آمن بعد ذلك بمقومات العروبة وخصائص الشرق ، فإنما هو إيمان عن وعى وبصيرة وتقدير ، وإذا آثر روح الحفاظ للتقاليد والتؤدة فى اصطناع الجديد من الأنماط فإنمـا هو الإيثار القائم على العقيدة المستنيرة والرأى المختمر .

ربمـا كان المرحوم « خليل مردم » فى تحمسه للقديم ، وفى مصادرته لدعوات التجديد ، لا يخلو من بعض الغلو ، ولـكن مرد ذلك إلى ما امتلأت به نفسه من حب للعروبة والشرق ، وهو حب شاعر ، ولا تثريب على من أحب أن يغلو ، ولا سيما الشـعراء ، وصدق شاعرنا «شوقى» فى قوله :

« ولـكن من أحبّ الشىء حابى »

ليست روح المحافظة مما يستهان به فى تقويم النهضة ، وفى توفير التعادلية للمجتمع ، فالمحافظة إنمـا تمثل فلسفة لها دعائمها فى الحياة ، ولهـا نصيبها من الحق ، فهى عامل من عوامل الخير ، وعنصر من عناصر السداد فى التقدم ، لاغناء عنه فى فورات التطور والتوثب التى تفتقر إليها الأمم عند الصحوة من سبات بعيد ، ولعلنا أحوج إلى قبس من روح المحافظة فى عالم قد اضطربت فيه موازين القيم ،

واختلطت معالم الأوضاع، وعز استخلاص الحقيقة المجردة فى لبابها الصميم وجوهرها المصفى .

فى مثل هذه الحقبة تبدو المحافظة أركانها ثابتة ، ومعالمها واضحة ، ومغبتها مأمونة ، سريعاً ما ترجى منها السلامة . ذلك لأن المحافظة تستند إلى تجارب مرت ، وخبرة استفيدت ، فقضاياها ركائز ثابتة فى بناء المجتمع ، ومفاهيمها جلية فى أذهان الناس ، ومن ثم تطمئن إليها الأفئدة ، وتسكن الخواطر ، وتمضى فى طريقها الخطى على غير قلق .

نحن فى حاجة إلى مجـــددين يشقون فى الحياة آفاقا مجهولة ، ويبشرون فى المجتمع بقيم لم تكن مألوفة ، فتلك ســـنة التطور والتقدم ، وليس من سنة الوجود مناص . ولكننا فى حاجة كذلك إلى من يدعم حياتنا الحاضرة بتقاليدها الموروثة ، ريثما تقوم بإزائها حياة جديدة مأمولة ، فالهدم قبل البناء شطط ، والبناء على الخواء لا يقوم . والحاضر والمستقبل متداخلان لا يفصل بينهما فاصل متميز ، كلاهما يأخذ من الآخر قبل أن تتبين بينهما الفواصل الحاسمة ، كما يلج النهار فى الليل ، أو كما يلج الليل فى النهار الظلمة الرقيقة تمازج النور حين الغروب ، والضوء الهين يخالط الغبشة فى مطلع الفجر .

لابد لنا من روح المحافظة ، فهى ضرورة اجتماعية ، لأنها إبقاء على مقومات حياتنا الحاضرة ، حتى تتجلى الفكرة الطارئة ، وتستقر الأوضاع الجديدة . فإن هدمنا قبل أن نبنى وقفنا فى عهد انتقال يسوده الاضطراب ، ولعل استبقاء مقومات القديم خلال عهد التجديد مما يعين على البناء المتين فى غير ارتجال ، ومما يتيح للجديد فرصة التمكن والاتزان .

وهكذا كانت روح «المحافظة» عند «خليل مردم» وليد تفكير فلسفى عميق فى التطور الاجتماعى الرشيد .

كان شاعراً محافظا ، ولكنه لم يكن شاعراً بدوياً فى الموضوعات والأخيلة والتصورات ، ولا فى المشاعر والأفكار ، وإنما كان شاعراً عصرياً استفاد بما اطلع عليه فى عصره من أنماط الحياة الاجتماعية وآدابها وأفكارها على نطاق فسيح ، فاصطبغ بها عقله ووجدانه وذوقه ، ولكنه احتفظ فى شعره بالقوالب الشعرية المتعارفة ، وبأداة التعبير المألوفة ، أو بما يسمى «عمود الشعر» فى الأدب العربى . وتلك هى صوره الشعرية وأخيلته وموضوعاته تمثل عصره الزاهى بأزكى ما يختلج فيه من أفكار ومشاعر وأهداف وذلك هو «تجديد المحافظين» ، يصلون الماضى بالحاضر ، فلا ينقطع مجراه ، ويجعلون من أدب العروبة سلالة مستبينة الخصائص مصونة

الأنساب ، مبرأة من شوائب الهجنة والاختلاط ، كشأن التجديد عند شعراء العباسيين الأول . حافظوا على عمود الشعر العربي ، وتصرفوا في الموضوعات والأخيلة ما شاء لهم عصرهم الجديد أن يتصرفوا في طلاقة واستجابة للحياة .

ولعل أعجب ما راعني من شخصية « خليل مردم » أنه كانت تتزاوج فيه نزعتان : الأولى هدوء الطبع وسماحة النفس ، والأخرى صلابة الإرادة وقوة الإصرار .

حين نقرأ له شعره ، تنعكس لأنظارنا هاتان النزعتان ، هنالك رقة وصفاء ، إذ يصف مباهج الطبيعة ، ويجلو خواطره فيما تراه للعيون وما يتخالج في النفوس . وهنالك تأجج واضطرام حين يتغنى بالأمجاد القومية ، ويحيي بطولة الجهاد والفداء . هو في نزعته الأولى هزار يشدو فيشيع في القلب طربا ، ويملأ الدنيا حوله بألحان الحب والسلام ، وهو في نزعته الأخرى أسد يزأر فتذوب في حرارة زئيره القيود والقضبان ، وتحس الدنيا وقد انقلبت حربا على الاستعباد والاستبداد .

كان « خليل مردم » شاعرا حاد الإحساس ، مرهف العاطفة ، مفتونا بالجمال . يتصباه الجمال إذا رآه ، ويتصباه إذا استشعره ، ويتصباه إذا قرأ تعبيراً عنه . وكأنما كان يزهوه الجمال ألا تراه

عيون الناس جميعاً . سواء أكان الجمال في شعر يقرؤه ، أم لوح من ألواح الطبيعة يراه ، أم معنى من معاني المجتمع يدركه . فينقل إليك في الدواوين التي نشرها ما أعجبه من شعر جميل لغيره من الشعراء ، وهو ينقل إليك في شعره صوراً جميلة من الحياة ، وكأنه ينشر لك ما أعجبه من شعر الطبيعة والوجود .

لقد أخلص نفسه لجمال البيان في كل عصر ومصر ، وشغلته مفاتنه في نثر وشعر . فعني بدراسة طائفة من أعلام البلاغة في الأدب العربي ، وأرصد الموفور من وقته وجهده لنشر دواوين جملة من الشعراء ، وكتب اسمه خادما لهذه الدواوين ، يجلو عنها غبار الزمن ، ويقدمها متاعا أدبيا للقارئين . لقد ذكر هؤلاء الشعراء ، ولكنه نسي نفسه وهو الشاعر المطبوع ، والفنان الموهوب ، فهو قد بر بشعراء الجمال الفني على اختلاف الأمصار والأعصار ، وأنساه البر بدواوينهم أن يبر ديوانه ، فتركه غير منشور ، تركه للتاريخ ، تركه أمانة لغده ، وفرغ هو لأمانة الشعر يؤديها لمن سبقه من الشعراء ، فاستوجب على من بعده من المعاصرين أن يردوا له الجميل .

ما سعيت إلى هذه القاعة ، للتعريف « بخليل مردم » فإن الجو الذي يحيط بي فيها يعرف من أمره فوق ما أعرف . ولو أتيح للكائنات

من حولى أن تنطق لزاحمتى على هـذه المنصة : أندى صوتا . وأفصح منطقا ، وأبلغ بيانا .

إنما جئت هنا لأحمل من ذوب روحى ، ومن أعماق قلبى ، تحية خشوع وولاء وإجلال لذكرى فقيد كريم ، ودّع حياتنا العاجلة ، تاركا لنـا أغلى ما يتركه الراحل للمقيم فى هـذه الحياة : لمسات شاعرية رفيعة ، فيهـا للإنسانية المعذبة جوهر نفيس من السلوة والعزاء .

محمود طاهر لاشين

يحكى أن ...

منذ ثلاثين عاما أو يزيد ، كانت أندية القاهرة ، تعرف طبقة من ناشئة ذلك العهد ، لاتفتأ تلهج بأهداف تلوح لها كأنها أطياف وأشباح وظلال ...

وكانت أهداف هذه الطبقة تتركز فى أن النفسية المصرية فى المجتمع الجديد لم تعد تستسيغ الألوان التى بدا بها الأدب فى تلك الأيام ، فهى تستشرف لأدب حى ، وتعبير جديد ، تختلج فيه ما تنطوى عليه القومية المصرية من عزيمة وتحمس وطماح .

لم تكن هذه الناشئة الحديثة تملك فى ذلك الوقت إلا تلك الشعلة المقدسة التى تتوهج بين الجوانح ، فتبعث فيها ضوء الإيمان ، وحرارة الاعتقاد ، وتثير فيها روح الحمية والإقدام ...

ويحكى أنه . . . كان من بين تلك الرفقة المتطلعة شاب مرح المجلس ، بسام المحيا ، سريع النكتة ، ذكى النظرات ، اسمه : محمود

طاهر لاشين . وهو الذى عرف له القراء من بعد كتابه القصصى الطريف « يحكى أن ... » . وقد أبت الأقدار منذ أيام إلا أن تختم هذا الكتاب بقصة تقليدية ، هى قصة المؤلف نفسه ، إذ يلقى على الدنيا تحية وداع ...

كان «طاهر» من بناة القصة المصرية الأوائل ، كتبها بوحى من موهبة أصيلة وتابع عمله فيها مثابرا دءوبا يتسامى بفنه درجة بعد درجة ، فترك للأدب المصرى ذخيرة باقية تتمثل فى كتبه التى منها : « يحكى أن » و « سخرية الناى » و « النقاب الطائر » .

أخص ما عرفنا به أديبنا القصاص أنه برع فى تطويع قلمه لرسم الصور والمشاهد التى تجول فى خياله ، والتى كان ينسج خيوطها من قلب المجتمع المصرى وأوضاعه المتميزة ، فإذا قرأت له قصة تمثلت نماذج دقيقة من بيئتنا المصرية بشخوصها وألوانها ذات وميض ورفيف ، والمؤلف مستخف وراءها لا تكاد تحس له تدخلا أو تطفلا يفسد عليك متعتك فى تذوقك لهـــذا الأدب القصصى الفنى ...

لقد صرفته شواغل الحياة عن مواصلة التأليف ، حقبة من الدهر ، فأخلى مكانه باختياره ، والأدباء يتفقدونه فيه ، ويتساءلون

مبسوط القامة ، مرفوع الهامة ، يلقى قصيدة رنانة فى تنغيم وترنيم، والآذان مصغية إليه فى شغف ، فوقفت بين الجمع أستمع ، وأعجبت بالشاعر المنشد ، وما إن انتهى الإلقاء ، حتى صفقنا كلنا طربا ، وسألت :

من الرجل ؟

فعلمت أنه « محمد السباعى » أستاذ الترجمة فى المدرسة .

لقد راعنى من الأستاذ يومئذ إقبال الطلاب عليه ، وتوددهم إليه ، رافعين الكلفة ، مطرحين الهيبة ، كأنهم إخوة صغار بين يدى أخ كبير ، يناقلونه المداعبات ، ويبادلونه الأفاكيه ، حتى إنهم كانوا إذا أطلق نكتة تصايحوا به :

أعد . . . أعد . . .

كشأنهم معه حين يستعيدون منه إنشاد أبيات من الشعر .

كانت وقفته . والطلبة حواليه ، ترسم صورة واضحة لشخصية « محمد السباعى » الأديب : رجل بجباح مراح ، أريحى النفس ، رضى الروح ، فى طبعه سماحة أصيلة ، وفى شمائله طرافة جذابة ، لا تكاد تجالسه وتتحدث إليه ، حتى تداعبه وتأنس بحديثه ، وإذا أنت تحس أنه قد أصبح لك صديقا حبيبا .

ولبثت أتتبعه بعد ذلك ، فى مجلة « البيان » وفى صحيفة « البلاغ »

وأختها « البلاغ الأسبوعى » وفى غيرها من الصحف والمجلات ، وفيما أخرج هو من المطبوعات ، كاتباً يدبج فصولا فى الأدب والاجتماع ، ومترجماً ينقل عن اللغة الإنجليزية من روائع الأدب الشرقى « رباعيات الخيام » ، ومن بدائع الفن القصصى شكولا وأفانين للقاص الفرنسى «موباسان» ، والقاص الروسى «تشيخوف» ، وأضرابهما من مشاهير الكتاب .

و « السباعى » أديب له منهجه فى الترجمة ، وطابعه فى التعبير ، وإن شخصيته لتتوضح فيما نقل من الشعر ومن النثر على سواء . فأنت حين تقرأ له ترجمة « الرباعيات » نظما تحس بأن معانى « الخيام » وأخيلته وأفكاره لم تجد من قلم « السباعى » مجرد « ساعى بريد » بين المرسل والمرسل إليه ، ولكنها صادفت شاعراً يتفهم روحها ، ويهيم فى جوها ويحرص على أن يعبر عما تفهمه واستشعره فى أناشيد متينة النسج ، ألفاظها منتقاة ، وقوافيها محكمة ، لا يسلس عنانها إلا لأديب مكين ، وشاعر رصين .

ولعل « السباعى » فيما صنع كان يحذو حذو « فتزجرالد » فى نقله «الرباعيات» إلى الإنجليزية ، كلاهما استوحاها وتفيأ ظلالها ، وكلاهما أطلق لشاعريته حرية الإفصاح عن مراميها ، وكلاهما قدم للغته بذلك طرفة من الأدب الوجدانى الروحى ، فيها للنفوس بهجة ، وللأذواق متاع .

فى ترجمتهم بنقل دلالات الألفاظ والجمل نقلا مجرداً لاحياة فيه ، وفى حسابهم أنهم التزموا الأمانة والدقـــة ، فأرانى أرثى للقارىء العربى إذ يعنى نفسه بقراءة قصة من هذه القصص ، فسيخرج منها ولم ينتقل إلى فكره سرها الكمين ، ولم ينفذ إلى قلبه سحرها الخلاب ، بل أرانى أرثى للمؤلف التاعس الحظ الذى وقع عمله فى براثن ترجمة لم تحسن تأدية المعنى ، ولم تستطع نقل الروح .

ويجب أن يذكر « للسباعى » ومن عاصره من أعلام مترجمى الأدب الغربى أنهم أصحاب الفضل فى المحاولات المبكرة لوضع تقاليد تعبيرية فى مجال الترجمة ، فلم تكن العربية يومئذ قد مرنت على استخدام عبارات مستقرة تترجم بهـــا نظائرها فى اللغات الأجنبية لأداء المعانى الأدبية . ولقد كان « السباعى » طويل الباع فى هذا المضمار ، فهو من الكتاب الفصحاء الذين قدروا على تطويع العربية لأداء مقتضيات التعبير فى الأدب الحديث .

ولقد كان أديبنا « السباعى » غزير المعرفة ، واسع الاطلاع ، تواقا أن يزود القارىء بخير ما جنى له من الثمرات . ولعل صبغته التعليمية التى كانت له فى مطلع حياته أستاذاً فى معاهد الدرس ،

هى التى بعثته على أن يجمع فى بعض مقالاته بين ما قرأ فى الكتب والصحف ، وما اختزن فى ذهنه من معارف ومعلومات وتوجيهات ، فى مختلف مناحى الأدب والفكر والحياة والمجتمع.

زكي مبارك

منـــذ سبعة عشر عاما أو نحوها ، في يوم صفا أديمه ، ورق نسيمه ، كما يصف بعض البلغاء ، كنت متخذاً سمتي نحو الحكمة لبعض أمري ، وأنا مشغول بما يجول في رأسي ، فإذا أنا بغتة أمام رجل ذي قامة وافية ، تكسوه حلة ضافية ، وهو يخب في سيره ، محلول رباط الرقبة ، وقد تأبط رزمة حافلة بالصحف والكتب والأوراق ، وعلى محياه طلاقة وبشر ، وفوق رأسه طربوش مستلق إلى وراء ، يطل من حافته شعر جعد مهوش . وما أسرع أن أقبل نحوي ، وضرب كتفي ، قائلا لي :

هل قرأت قصيدتي الغزلية في «البلاغ» أمس ؟

فلممت شتات فكري ، وأجبت :

وهل يفوتني ذلك يا « دكتور » ؟

ـــ وما قولك فيما قرأت؟

— قصيدة غراء ، وفريدة عصماء ، كشأنك فى كل ماتنظم . . .

— إنك تثنى عليها إشفاقا على نفسك منى أيها الصديق .

— وماذا تريدنى أن أفعل ؟

— قل الحق ، ولك الأمان . . .

— اصدقنى يا « دكتور » . . . أتلتزم أنت الحق دائما فى كل ما تقول ؟ . .

— إنك تعلم ، وغيرك يعلم ، أن « الدكاترة » زكى مبارك . أجرأ خلق الله ، وأنه لا يخشى لومة لائم فى قولة الحق . . .

— وقولة الباطل . . . أجرىء أنت فى قولها أيضاً ؟

— ماذا تعنى ؟

— أعنى أنك ربما استطعت أن تعطى الباطل صيغة الحق ، بفضل ما أوتيت من قوة حجة ، وتوقد فطنة . . . هل تعوزك المهارة واللباقة يا « دكتور » ؟ .

فتعالى بقهقهة ريفية مجلجلة ، قال وهو يضرب يدى :

أنا كما ترى أن أكون . . . حسبى ألا تنكر جرأتى وشجاعتى أيها الصديق . . وما أقرب الباطل من الحق ، وما أقرب الحق من الباطل ، فى بعض الأحيان ، حتى لكأنهما سيان !

فقلت له مبتسما :

إن اعترافك هذا أكبر دليل على ما امتزت به من جرأة وشجاعة .

فسكت سكتة قصيرة ، ثم صاح :

اسمع منى مصداق ما تقول ... ماذا تعلم من أمر وكيل الوزارة فلان ، ذلك الذى قلت فيه : إنه قبانى بلا ميزان ؟

فبادرت أقول :

هل جد فى أمره جديد ؟

— ترحم عليه .

فغفرت فى قائلا :

لم أعلم بالنبأ . متى ؟

— ذهبت روحه ، أو قل : ذهبت ريحه ، وأنا الذى قتلته وكفنته ، وواريته الثرى .

ثم استل إضمامة من الرزمة التى يحملها ، وبسطها فى يده ، فإذا هى تجربة لمقال عليها إصلاحات بالقلم ، وقال :

هذه شهادة وفاته ، ستظهر غدا على رأس موضوعات مقالى : « الحديث ذو شجون » .

فهمهمت قائلا :

إنا لله وإنا إليه راجعون . ولماذا لم تتركه يطول عمره قليلا يا « دكتور » ؟ .

— لقد طويته ونشرته ، وهكذا أراد لنفسه . إنه جحد حقي ، وتعرض لسخطي . على أني أكرمته بهذه الميتة الأدبية الرفيعة . من يمت بسيف « زكي مبارك » ناله شرف عظيم . لقد كان شرفاً « للخوارزمي » أن يفحمه « الهمذاني » أشد الإفحام ، ويقضي عليه بالموت الزؤام .

— نعم . كان العراك بينهما شديداً ، فيما سجلته كتب الأدب والتاريخ .

— أي كتب يا سيدي ؟ هل قرأت ما كتبته أنا في ذلك في كتابي « النثر الفني » ؟ . أروع روائع الكتب التي تمخض عنها القرن العشرون ؟ .

— كتابك الذي شهدت له جامعة « السوربون » ، ونلت عليه إجازة « الدكتوراه » .

— ستنهدم « السوربون » وغيرها من جامعات « فرنسا » بل جامعات العالم أجمع حجراً حجراً ، ويبقى اسم « زكي مبارك » وكتابه « النثر الفني » . لاتشك في ذلك أيها الصديق .

— وهل ظننت أني أشك يا « دكتور » . كل ما في الأمر أنك ذهبت بكتابك ليطلع المستشرقون على ثمرات بحثك ودراستك ، فيزدادوا معرفة بأدبنا العربي ، وإيماناً بعبقريته .

— لقد كنت هنالك فى « فرنسا » مهوى أفئدة الناس من مستشرقين وغير مستشرقين . من رجال ونساء . لاتنس أيها الصديق أن الحسان الفواتن فى « باريس » كن يتعشقن فتى « سنتريس » !

— ولكنك يا « دكتور » لم تهو إلا « ليلى » المريضة فى العراق، وباسمها أخرجت كتابك المعروف .

— إن لى فى كل مكان « ليلى » مريضة بحبى . ألهمها أنس الحياة ، وتلهمنى روائع القريض .

وهنا لمح سيارة أجرة مارقة ، فتنحى عنى عجولا ، وصاح يستوقفها ، فلما أطاعت جذب منها راكبها ، فنزل يصالحه، وانخرط معه فى حديث فياض تتناول أطرافه القصيدة الغزلية ، والمقال الذى ينعى وكيل الوزارة ، وهو حى يحكم ... وطالت بهما الوقفة ، وسائق سيارة الأجرة يعجب لما بينهما من إرخاء وشد ، وأخذ ورد ، وهو ضجر ملول يجأر بالشكوى ، ولا يجد من سميع .

وفاتنى يومئذ أن أدرك موعد المحكمة ، ولكن ما كسبته من ذلك اللقاء الطريف بينى وبين « فتى سنتريس » كان فيه العوض ، فلم أشعر بضيق . وإن وقفة واحدة لك مع « زكى مبارك » خليقة أن تظهرك على كل شىء فيه ، ماعلن منه واستتر ، لقد كان ينفض

نفسه نفضا، ويكشف عن جليته كشفا ، فيركز لك خصائص شخصيته، ويقدمها فى سهولة ويسر ، دون أن يرهقك فى تعرف هذه الشخصية ، واستبطان أسرارها ، والتفطن إلى ما فيها من طرافة أو شذوذ .

يبدأ حديثه معك بنكتة أو نادرة ، وينقلك منها إلى تحقيق لغوى أو أدبى ، ولا بد أن ينطوى التحقيق على غمز ولمز يصيب به القريب أو البعيد ، وفيما هو كذلك يثك لواعج هيام بهذه أو تلك ، ممن يسمى أولا يسمى ، وإذا أنت فجأة معه فى « سنتريس » يريك جهوده لإنهاض ذلك البلد الريفى الذى كان مسقط رأسه ، ويتخلل هذا كله أنباء مبارزة وطعان مع الأقران وغير الأقران على اختلاف الألوان .

إنه كشكول حى مبعثر ، بل مسرحية مختلطة ، فيها مشاهد شتى ، من مأساة وملهاة ومهزلة . أو لكأنه برج بابل : ملتقى النظائر والأضداد !

نشأ « زكى مبارك » نشأة أزهرية ، تمكن فيها من العلوم العربية والإسلامية التى تميز بها « الأزهر » ، أو على الأصح انفرد بها كل الانفراد ، وقد ظلت هذه النشأة أساساً قوياً لحياة الرجل فيما بعد ، على الرغم من انتقاله إلى آفاق جديدة فى الدراسة والتعليم

وكان لنظام التعليم الأزهرى لذلك العهد محاسنه التى لاتجحد ، كما كانت له معايبه التى أملاها روح العصر وطابعه .

وعلى رأس المحاسن أن نظام الدراسة فيه كثير من الحرية والانطلاق ، وفى ذلك مايعين ذوى المواهب على أن يجدوا مايصقلها وما يتيح لها التألق والسطوع . فالطالب غير ملزم بفصل معين ، وحصص تتوالى ، ومناهج مقررة ، وواجبات تفرض ، ومعلمين يريدون الطلاب على مايريدون ، وامتحانات تتعاقب على على السنين ينتقل بها من مرحلة إلى مرحلة . ومن ثم يجد الطالب نفسه فى فسحة من وقته وتفكيره واختياره ، لا سلطان لأحد عليه فى ذلك كله ، فهو وشأنه فى العلوم التى يؤثر أن يدرسها ، والمعلمين الذين يطيب له أن يتلق عنهم ، والمرحلة التى يرى نفسه أهلا للانتقال إليها . وكان من أثر هذا أن استوثقت الصلة بين الطالب والمعلم : يجلس إليه فى حلقة درسه ، ويزوره فى بيته ، ويصاحبه فى غدوه ورواحه ، ويتخذه رائدا وأبا روحيا له ، ولا تكاد تنفصم هذه الصلة على طول المدى ، وإن بلغ الفتيان سن الأشياخ ، وقعدوا معهم مقاعد الدرس والتلقين .

على أن الأزهر فى هذه الحرية والانطلاق كان مضروبا عليه نطاق ، فهو فى داخل إطار ، وخلف أسوار : إطار مؤلفات متعارفة ،

لا مزيد عليها ، وأسوار مبادىء مسلمة لا تشكيك فيها . فإن ساغ النقاش فى المسائل ، والجدل فى الفروع ، فما يسوغ ذلك بحال من الأحوال فى أسس وقواعد تنزل منزلة العقائد ، فهى حرية فى التفاصيل ، ولكنها تنطوى على تقديس للأصول .

ومع ذلك استطاع هذا النظام الدراسى الأزهرى أن يخرج أفذاذا فى الفكر والرأى ، ازدهرت بهم نهضة العلم والأدب ، وفى ظلها نضجت شخصية أولئك « الدكاترة » الذين كان يجمعهم فى إهابه « زكى مبارك » !

فى مقالاته وأحاديثه تجلت نفحات الحرية والانطلاق ، كما برزت خاصة الاستطراد التى شاعت فى الكتب الأزهرية ذات الشروح والحواشى والتقارير ، فهى تتطرق من موضوع إلى موضوع ، وتتنقل بين أشتات من النواحى والجهات ، على طريقة « الشىء بالشىء يذكر » ، أو - كما كان يسمى « زكى مبارك » مقالاته - : « الحديث ذو شجون » .

وفى تلك المقالات والأحاديث من الروح الأزهرية صلابة فى الذياد عن اللغة العربية والأدب العربى والمقومات الإسلامية ، فهو أديب عربى قح ، ومفكر عروبى محض ، تملكه الإيمان بالعربية والغيرة على العروبة ، على الرغم من تحليقه فى آفاق أخرى

من الثقافة والتفكير .

تعلم الفرنسية في صدر شبابه ، متطلعا إلى المزيد من الثقافة الأجنبية التي لا مجال لها في «الأزهر» ، ولا ريب أن مسلك أستاذه الدكتور «طه حسين» قبله على هذا النحو قد أثر فيه أعمق التأثير ، حتى أوحى إليه كذلك الخروج من «الأزهر» إلى «الجامعة المصرية» في عهدها غير الرسمي ، فمضى في الطريق نفسه ، ونال إجازة «الدكتوراه» من تلك الجامعة الفتية ، ثم قصد من بعد إلى «فرنسا» ولبث يكافح حتى ظفر منها أيضا بإجازة «الدكتوراه» الجامعية .

ولعل «زكي مبارك» يباين الذين انصرفوا إلى اللغات الأجنبية ودراساتها في أنه لم يطلب بها علما ولا أدبا ، وإن اكتسب ما تيسر له من مناهج البحث وطرائق الدرس ، فكأنما كان مبعوثا إلى «فرنسا» لأداء مهمة ، والاضطلاع بخدمة ، هي التعبير عن اعتزازه بأدب العروبة وحضارتها ، وإقناع المستشرقين بطول الباع ، والقدرة على التخريج والإبداع .

لم يكن الرجل كغيره من أصحاب الدراسات والإجازات الأجنبية ، ينقلون مما درسوا في علم أو أدب أو تاريخ ، أو يحاكونه فيما ينشئون من بحث أو قصة أو شعر . وعلى الرغم من فرنسيته

اللغوية لم تظهر عليه مسحة أجنبية فى النمط الفكرى أو الأسلوب الكتابى ، بل عهدناه عربيا صميما ، لاتخلو كتاباته من عنجهية أنيسة ، ولوثة أعرابية محببة ، بل لقد يفلت قلمه أحيانا حتى يبلغ حد التطرف والجماح .

ولقد مضى « زكى مبارك » عن إنتاج أدبى ضخم ، فسيح الرحاب ، كثير الشعاب ، فمن بحث وتحقيق وموازنة بين آثار الأدباء المحدثين والقدامى ، إلى شعر ينظمه للتسرية عن النفس والإبانة عن حيوية العاطفة ، ومن أمشاج من الخواطر والأسمار والتعليقات على الغاديات الرائحات من الشئون والأحداث ، إلى مشاجرات قلمية لا يمل فيها أن يصاول معاصريه ما وجد إلى الصيال سبيلا .

والبحوث التى توفر عليها « زكى مبارك » متوج أهمها بشهادة الأعلام الجامعيين فى « مصر » وفى « فرنسا » ، أولئك الذين أناله اعترافهم أعلى الإجازات الجامعة قدرا ، ومهما يكن من أمرها فليس ريب فى أنها كانت بواكير موفقة لحركة التجديد فى الأدب العربى ، ورفع مستوى البحث فيه إلى تلك المستويات التى ارتفعت إليها طرائق البحث والنقد فى الآداب العالمية العصرية ؛ وإنما لتزداد من الناحية التاريخية قيمة بأنها كانت بدء انطلاق ، ومطلع

آفاق ، ثم هى من الناحية العلمية حصاد جهد دائب ، وسهر موصول ، لم يدخر فيه صاحبه وسعا فى الاطلاع والتنقيب والتحصيل .

وشعر « زكى مبارك » يتميز باثنتين : فصاحة ، ودماثة . فهو لين اللفظ والأسلوب ، متين النسج والقافية . وفى معانيه العاطفية طراوة وعذوبة ، وليس يعوزه الطابع الموسيقى على الإيقاع العربى المتوارث . وكان هو يعتز بهذه الصفات فيما ينظم ، ويجدها حقيقة بأن تجعل منه أشعر الشعراء ، يشهد بذلك لنفسه ، وكفى به شهيدا .

وأحاديث « زكى مبارك » تكشف عن موهبة فيه ، هى موهبة المسامرة والمناقلة ، فى هذه الأحاديث تشف روح طبيعية برئت من التكلف والتزويق ، فهى صورة صادقة لما ينطبع فى وجدان الرجل من مشاهد وذكريات ، ومن خواطر وتأثيرات وهو يرسلها عفو القلم ، وفيض البديهة ، لا تروية فيها ولا تدبير ؛ ولكنه ينبرى للحـــديث فيواتيه سيل منهمر ، تتداعى فيه المناسبات والذكريات والمعلومات والخطوات فى تشابك واشتجار ، ولكنها متآلفة مع ذلك بقوة الروح ، ووحدة المنادمة ، ولطف الوصل بين البعيد والقريب ، فأنت متنقل فى حديثه الذى تقرؤه له بين نقدات ومعابثات ونوادر ، فى غضونها استـــدراك فلسفى ،

أو استطراد عاطفى ، أو تعليق نحوى ، أو شكوى شخصية . وكأنك تستمع إلى مذياع يتنقل مفتاحه من تلقاء نفسه بين محطات الإرسال فى شرق وغرب ...

وقلما يخلو سمر من أسماره من لجة تتناول الجمال وافتتانه به . ولم يكن ذلك عجباً من صاحب «مدامع العشاق» «وليلى المريضة فى العراق» ، ولكن العجب أن تتبين فى حديثه افتتان الجمال به . ووقوع الحسان فى شباكه ، وإنه ليوغل فى هذا إيغال من يقف من خصومه أو عواذله فى هذه القضية موقف التحدى ورد الافتراء ونقض الادعاء .

وأما مشاجراته القلمية فقد كان فيها مطواعا لفطرته ، منساقا مع الشيمة البدوية أو الريفية فى إيثار الصراحة العارية . فهو إما رأى شيئاً ينكره ، انبرى ينقده ويشهر به ، غير آبه بما تواضع عليه الناس من الكياسة والحصافة والتزمت وتجنب الاحتكاك والهجوم . وما كان «زكى مبارك» يؤمن بتلك الطراوة العصرية فى عاسنة الناس بعضهم لبعض ، ولكنه كان عارم الرغبة فى البوح بمكنون وجدانه ، دون محاباة أو مواربة . ومن ثم يكتسب حديثه طابع الخشونة والجفوة والاقتحام ، وقد أفاد الرجل من ذلك أنه أراح ضميره ، بيد أنه أحاط نفسه بضروب من العداوات والمناوآت

وإن لم يأبه لها ، إذ بسط كل مايحوك فى صدره ، ونفض عنه مايثقله ، فصفا قلبه ، وسلمت طويته ، وسهل عليه أن يصافح فى يومه من هاجمه فى أمسه ، صادقا فى مودته ، كما كان صادقا فى خصومته .

ولا يعوز القارىء أن يلتمس صفاء نفس « زكى مبارك » فى كثير مما كتب ، إذ يصادف فى تعليقاته تحية لرجل كانت بينهما علاقة فى درس أو مجلس ، وذكرى لراحل كان له أستاذا أو كانت بينهما مشاركة فى عمل ، وما يشبه الترضى والإعتاب لرجل هاجمه من قبل أعنف هجوم ؛ معترفا بجميل له عليه أو معجباً برأى أبداه

ومن آيات وفائه واعتزازه بمشخصاته أنه كان لا يفتا يذكر «سنتريس» مسقط رأسه ، حتى أصبح اسمها مذكورا كأنها كبرى العواصم لا إحدى القرى ؛ فنافست فى أدبنا العصرى معاهد العصر الجاهلى من نحو «سقط اللوى» و «الدخول» و « حومل » فى شعر «امرىء القيس» !

ولعل أصدق وصف « لزكى مبارك » أنه طفل كبير ، احتفظ بما للطفولة من سرعة النسيان للإساءة ، وترك الاحتمال للحقد ، وخلوص الضمير من كوامن الضغن ؛ فإنك لترى الطفل غضوبا على رفيقه فى شىء من الأشياء ، ولا تلبث أن تراه ملاعبا له ، ناسيا ما كان بينهما من مغاضبة وشحناء ، بل لعل ذلك كان منه سبيلا إلى توطيد صداقة ، وتمكين إخاء !

سلام على « زكي مبارك » . . . .

كان مثلا للجد والدأب فى التكوين والتحصيل ، وكان شعلة نشاط فى التأليف والتدبيج ، وكان شخصية بارزة فى مجتمعنا الأدبي، أحس وجودها من هو لها ومن هو عليها. والرجل العظيم لا تخلو حياته من صديق وخصيم !

الاهتمام بالدراسات العلمية البحتة والمباحث الاجتماعية العميقة مما لاترحب به الصحف إلا فى الندرة ، وكان الناشرون أشد من الصحف عزوفا عن تلك النواحى ، وأكثر ميلا إلى التأليف الذى يحقق غرض التسلية والترفيه ، فلم يجد بدا من أن يسخر ماله لأداء رسالته ، فما كان الفقيد بالكاتب الذى ينشد التكسب بقلمه ، ولا كان ممن يبتغون الشهرة وبعد الصيت بين جمهور من القراء يتخذون القراءة لهواً وتزجية وقت فراغ . وإذا نحن نرى « إسماعيل مظهر » ينشىء مطبعة ودار نشر ، عنهما تصدر مجلة « العصور » الشهرية وأختها الأسبوعية ، وعنهما تخرج الكتب والمؤلفات لصاحب «العصور» ولغيره من الأدباء والعلماء . وتجلى طابع المجلة ودار نشرها واضحاً بين سائر المجلات ودور النشر ، فقد ظهرت « العصور » تؤازر مجلة « المقتطف » فى الحرص على تزويد القارىء بأحدث المعارف الإنسانية ، وبأعمق المباحث فى ميادين العلم والأدب والاجتماع ، وتميزت بالحرية والطلاقة فى تقديم الجديد من الآراء والأفكار والنظريات ولم تكن الكتب التى نشرتها « دار العصور » لتجد طريقها إلى الجمهور ميسوراً فى دور نشر تزن ماتصدره بميزان الربح والرواج . وهكذا ترفعت مجلة «العصور» أن تكون مورد كسب كما ترفعت دارها للنشر أن تكون بضاعة للاتجار .

وإذا كان صاحبهما قد فقد فيهما الكثير من حرما له ، فلا ريب فى أنه أدى بهما رسالة فكرية رفيعة ، ولا ريب فى أنه أسدى بهما مأثرة يذكرها له تاريخ الصحافة والثقافة بالفخر والإعزاز .

تعددت الآفاق التى ارتادها « إسماعيل مظهر » بقلمه وفكره ودراسته وجهده ، فهو فى محيط العلم ناقل « أصل الأنواع » لداروين ، وهو فى حقل الأدب مترجم بعض لوامع « طاغور » ، وهو فى ميدان الاجتماع صاحب البحوث المبكرة فى المذهب الاشتراكى ، وهو فى مضمار اللغة السابق إلى التأليف المعجمى فى اللغتين الإنجليزية والعربية تأليفاً يقر أسساً وطيدة للمصطلح العلمى تسد حاجة الدارس والمعلم والمترجم .

وإن هذه النواحى التى تنازعت فقيدنا العظيم ، وجعلت منه رجلا متنوع الجهد ، متشعب السعى ، لتكشف فيه عن إدراكه لجسامة التبعات التى ألقيت على عاتق رواد النهضة فى مطلعها القريب ، واضطلاعه من هذه التبعات بنصيب موفور . فقد فتح عينيه فإذا العالم الأوربى يزخر بأوضاع طريفة فى الحضارة ، وفنون جديدة من المعرفة ، وعلم قائم على تطبيق وتجربة ، ومبادىء اجتماعية تتصارع ، وألوان من الأدب لتسود ، والثقافة فى بلاد العروبة يومئذ سطحية ، والدراسات الجامعية وليدة ، فأراد أن

بعد النهضة العربية بمقوماتها ، واقتضاه ذلك أن يتعهد بجهوده مجالات متعددة فى العلم واللغة والأدب والاجتماع على السواء .

* * *

كان للأستاذ « إسماعيل مظهر » فى كل ميدان طرقه من تلك الميادين على تنوعها وتشعبها فضل مذكور ، وأثر بارز ، ولكن فضله الأكبر الذى يطبع شخصيته فى عصرنا الحديث ، وأثره الباقى الذى تمتاز به جهوده الثقافية فى لغتنا العربية الحاضرة ، يتجليان فى أنه كان من تلك الزمرة التى عملت فى مطلع النهضة على أن ترتفع بمستوى التفكير والتعبير إلى المنهج العلمى السليم ، إذ كانت أغراض الكتابة والبحث فى جملتها تدور فى مدارات ضيقة سطحية تتفشى فيها الخرافات والأوهام والأفكار التى عفى عليها الدهر ، ولا تكاد تتجاوز مخاطبة العواطف والتعلق بأذيال الأخيلة ، دون تعمق فى واقع الحياة ، وتناول للمسائل والمشكلات ذات التأثير البعيد فى المجتمع ، وتغلغل إلى الحقائق التى كشفت عنها حضارة العصر . فكان جهد الأستاذ «إسماعيل مظهر» ومن إليه من زمرة المفكرين العصريين فيما كتبوا وفيما ترجموا أن يجعلوا الكتابة موضوعية بحتة ، والبحث قائماً على الاستقراء والتحليل والاستنتاج، فى غزارة مادة، وقوة تفكير ، ودقة تأمل ، ونفوذ إلى الصميم .

وعندى أن ترجمته لكتاب «أصل الأنواع» لداروين ، تشبه فى الدافع إليها ترجمة « لطفى السيد » لكتب أرسطو ، وقد ظهر « أصل الأنواع » قريبا من الوقت الذى ظهر فيه كتاب « علم الأخلاق » . أراد « مظهر » أن ينقل أصلا من الأصول العلمية الحديثة يوضح مذهب التطور ، كما أراد « لطفى السيد » أن ينقل أصلا من الأصول الفلسفية القديمة التى توضح مذهب «أرسطو»، وكان ذلك منهما دليل الإيمان بأن نقل الأصول فى العلم والفلسفة إلى اللغة العربية هو أكثر السبل عونا على صحة الفهم، والتعرف إلى الحقيقة ، وأهدى الطرق إلى توطيد أسس التفكير .

وكما كان الأستاذ «إسماعيل مظهر » حريصاً على أن يقرب إلى قراء العربية زاد المعرفة الأوربية الحديثة ، كان على مثل ذلك الحرص فى وصل الحياة العلمية المتطورة بالجذور العربية المكينة فى العلم والمنطق والفلسفة ، ولطالما عرفنا بالسابقين الأولين من أساطين العرب ، أولئك الذين أضاء بهم تاريخ العلم والمعرفة حقبة من الزمان .

* * *

ليس فى مقدور كلمات تلقى فى دقائق معدودات أن تجزىء فى تقدير عالم باحث أمضى نصف قرن دءوباً على الكتابة والتأليف .

ولو كان الوقت بملكي لما استطعت أن أوفيه حقه كله ، فإن للأستاذ إسماعيل مظهر في كل ميدان من الميادين التي ارتادها وزناً واعتباراً يحتاج الحديث فيه إلى أهل الاختصاص .

وحسبي من كلمتي هذه أني أتجه بها تحية لروحه في ملئها الأعلى ، وإكباراً لذكراه التي تسري في حياتنا العلمية والأدبية والاجتماعية مسرى النسمة العطرة ، تملأ النفس من رضا وارتياح . .

صديق شيبوب

في سطور قلائل ، صباح يوم الجمعة ١٩٦٥/٤/٢٣ نعت الصحافة شيخاً من شيوخها الأجلاء ، هو الأستاذ «صدّيق شيبوب» .

كانت «الإسكندرية» مقامه ، فيها لمع اسمه ، وبرزت شخصيته ، فلم تكن تخلو منه ندوة من ندواتها جليساً أنيساً ، أو محاضراً بارعا ، أو مشاركا في مسعى من المساعي التي تستهدف خدمة الثقافة والمجتمع .

وإذا كان العمل الصحفي قد فرض على الأستاذ «صدّيق شيبوب» فرضاً ، باعتباره مورد رزق ، فقد كانت الصحافة كذلك متنفساً له يعبر به عن ولوعه بالأدب ، ويعرض ما له من أثر فيه .

لم يكن أدبه وليد عاطفة جياشة وقريحة وقادة فحسب ، ولكنه كان مع هذه وتلك يستمد أصالته وقوته من ثقافة عالمية واسعة الأطراف ، وإلمام شامل بما يجد من تيارات فكرية شتى .

ألزم نفسه، زهاء ثلث قرن ، أن ينقد الكتب في مقال أسبوعي

بتصدر الجريدة السكندرية التي يعمل فيهـــا ، وما كان في نقده يجتزيء بتصيد ملاحظات عابرة يتناول بها الكتاب المنقود ، بل كان يتخذ من الموضوع سبيلا إلى بسط رأى أو جلاء فكرة أو مناقشة قضية يجد فيها القارىء فائدة ومتعة يزدوجان في آن .

وربما رأيته في نقده مؤيداً أو معارضاً ، بيد أنه لا يحتد في معارضة ولا يشتد في تأييد . طابعه الاعتدال ، ورائده الصراحة، وقوام النقد عنده عفة القلم .

وما أحسبه كان يبغي بما يكتب شهرة وبعد صيت ، وإلا لما حبس مقالاته النقدية تلك في صحيفة « البصير » ، وهي صحيفة محلية محدودة ، ميدانها الشئون المالية والتجارية ، وذيوعها مقصور على مدينة «الإسكندرية» ،ومع ذلك فإن مقالاته كانت تصل إلى الخاصة من أهل الفكر والأدب ، وتنزل عندهم منازل التقدير والإكبار .

وقد عرفنا للأستاذ « صديق شيبوب » إقباله على القصة تأليفاً وترجمة . . وأنت في قصصه المؤلفة تلمح لقطات بارعة من البيئة حواليه ، وصوراً لطيفة لشخصيات تنتفض حيوية ، وتجده يعالج مضامين القصص وأحداثهـا معالجة سوية هادئة غير متكلفة . أما مترجماته فهي مختارات موفقة من أدب اللغة الفرنسية ، وكان يحسنها أيما إحسان . ولذلك اتسمت ترجماته بالدقة ، مع سلاسة لفظ ، وجمال عبارة ، وقوة أداء .

لذكراه العطرة تحية وسلام . .

محمد مندور

عزيز علينا أن نذكر الأستاذ الدكتور « محمد مندور » ، اننعاه فى حسرة وتفجع .

فقدناه فى الشهر الماضى ، أكثر ما كنا رجاء فيه ، وحفاوة به . فقد دعوناه إلى المشاركة فى عدد خاص من مجلة «القصة» ، هو عدد الطلائع ، لينقد ما تيسر له قراءته من القصص ، فرحب واستجاب ، وكان الأمل أن يكون ذلك فاتحة اتصال أوثق ، ومشاركة أبعد مدى .

ولكن للأقدار سخرية بما يفكر فيه المفكرون وما يريدون ، وكان من سخريتها بنا ، أن تحملنا صاغرين على أن نكتب اليوم هذه السطور فى تحية الراحل المأسوف عليه ، نقدم بها نقده الذى كتبه إلى المجلة ، آخر ما كتب إليها ، أو بالأحرى أوله وآخره معا .

منذ ربع قرن أو يزيد ، ظهر فى الناس كتاب اسمه « نماذج بشرية » لكاتبه « محمد مندور » ، وأشهد أنى لم أكد أمضى فى

قراءة بعض فصوله حتى تبين لى أنى بإزاء كتاب فذ لكاتب فذ ، وأنه قد ولد فى العربية مؤلف فى النقد ليس لها بمثله عهد ، فهو فى منهجه وفى مضمونه وفى صياغته يدل على بصر بالفكر الحديث فى أرقى مستوياته ، ووقوف على روائع الأدب عامة والأدب القصصى خاصة ، ومهارة فائقة فى التركيز والاستخلاص والتوجيه .

ويومئذ أيقنت بأن سيكون هذا الكتاب بمثابة تربية نقدية لناشئة الأدب وشداته ، وتذكرة نافعة للأدباء الرواد وطلائع النقاد .

وعرفت أن الدكتور «محمد مندور» تلقى ثقافته الأدبية الرفيعة من أصفى الينابيع فى الغرب ، وأهل نفسه هنا لك بدراسات عميقة فى ألوان من العلوم الإنسانية والمعارف الكونية ، ورجع إلى وطنه أستاذا جامعيا يبنى أجيالنا الصاعدة على أسس وطيدة . وما لبثنا أن رأيناه يترك مقعده من الجامعة ، وكأنه ضاق به ، ويخرج إلى الآفاق الفساح ، يكتب فى الصحف اليومية تعليقا على شئون الحياة وشواغل المجتمع ، ويتناول فى المجلات الدورية موضوعات حول النقد الأدبى متنوعة ، ويحاضر فى المعاهد الفنية وغير الفنية ، ويلقى أحاديثه فى الإذاعة مرئية ومسموعة ، ويسهم فى ندواتها بالرأى والمناقشة ، وهو فيما بين ذلك كله يؤلف

أو يترجم ماضي العزم ، ناشط القلم .

ولعل أكبر ما يميز الدكتور مندور أنه جرى فى النقد أول ما جرى على ما درس من مناهج وأصول اتباعية مقررة ، بيد أنه لم يتعصب لها ، ولم يقف عندها ، بلساير الجديد فى عالم الفكر ، وتابع التطور فى مذاهب الأدب ، ولم يضرب صفحا عن المستحدث من أساليب النقد ، وإذا هو يتمثله ويزنه أدق وزن ، ويخرج منه ناقدا أصيلا ، بعيد أفق النظر ، مصقول الذوق ، عادل التقدير ، مكتسبا من السماحة والمرونة ما يعصمه من التعسف ، وينأى به عن الجمود .

وإذا كان الدكتور « محمد مندور » قد ودعنا اليوم ذلك الوداع المحتوم ، فقد خلف لنا بآثاره نموذجا من النماذج الإنسانية الممتازة . . نموذج أديب ناقد ، آمن برسالته فأداها فى أمانة ، وذهب راضيا مرضيا ، عليه صلوات من الله ورحمة .

أمين الخولي

يعد الأستاذ أمين الخولي من أنضج ثمرات النهضة العلمية والأدبية التي اتسم بها القرن العشرون في الشرق . إذ تجلت في شخصيته أروع خصائص تلك النهضة من الثورة على التخلف والجمود ، والتطلع إلى آفاق نيرة في الثقافة والفكر ، والاتصال الوثيق بأقوم ما تمخض عنه العصر الحديث — على المستوى العالمي — من نظريات واتجاهات .

وقد أفاد من تخرجه في الأزهر وفي القضاء الشرعي أصالة في دراسة جوانب الحضارة الإسلامية والعربية وثقافتها ، تاريخا وفقها وأدبا ولغة . وكان لذلك أبعد الأثر في حياته العقلية ، خلال مراحل جهاده الثقافي والفكري في البحث والتأليف والتدريس الجامعي .

ولم يكن نشاطه مقصورا على هذا كله ، مع تعدد نواحيه ، ولكنه زاد على ذلك أنه كان له من أساليب الدعوة والتوجيه

ما أنشأ به مدرسة فكرية التف حولها شباب الجامعة — جيلا بعد جيل — يقتبسون منه نظراته الموجهة ، وآراءه الثاقبة ، فى تطوير قواعد اللغة ، وتجديد مذاهب الأدب ، وإحياء رسالة الدين ، ويتخذونه مثلا كاملا فى إعلاء حرية الفكر وإذكاء روح التقدم .

وقد ترك فى اللغة والأدب والشريعة والفلسفة والأخلاق كتبا ورسائل ومباحث تربى على الثلاثين ، تغلغل الانتفاع بها فى أرجاء الوطن العربى الشامل ، ومنها ما عرض فى المحافل والمؤتمرات العلمية فى البلاد الأجنبية وترجم إلى لغاتها .

مراد كامل

الدكتور مراد كامل أستاذ جامعى مكين ، وعضو فى مجمع اللغة العربية له فيه أثر واضح، وكذلك فى المجمع العلمى المصرى ، وغيره من الهيئات العلمية . وهو عالم تخصص فى دراسة اللغات، وبخاصة اللغات الشرقية ، وقد نال دكتوراه الأستاذية من جامعة توبنجن بألمانيا فى صدر شبابه . ومنذ استكمل تعليمه لم يفتر له جهد فى البحث والتأليف ، ولا نشاط فى التدريس والتوجيه ، وأنه مع ذلك دءوب على الأعمال الإنشائية ، أحيا إلى جانب أستاذيته الجامعية مدرسة الألسن لتنشيط حركة الترجمة ،وعمل على إدخال اللغة العربية فى مدارس أثيوبيا ، ووضع لذلك كتابين فى القواعد والمطالعة . وله مشروع لجعل اللغة العربية لغة عالمية . أما بحوثه فى الآداب العربية وتاريخها وفى فقه اللغة العربية وفقه اللغات عامة ، فقد جاوزت الخمسين ، وهى على تعدد ألوانها ، وتنوع اتجاهاتها ، تمتاز بأصالة درس ، وعمق بحث ، وسعة أفق . وذلك إلى امتيازها بالحيوية وقوة ارتباط موضوعاتها بمطالب النهوض

العصرى ، مع صدق الرغبة فى الإفادة والتبصير . وبهذا يسمو الدكتور مراد كامل إلى طبقة العلماء الذين يتجهون بجهودهم وجهة عملية إيجابية فى جد وصمت وإخلاص، لإمداد الحركة العلمية بما يزيدها من غنى ونماء .

دور الأدب في المجتمع

الأدب فى أبسط تعريف له هو التعبير عن الحياة ، وما الحياة إلا انعكاس النظم والأوضاع على الأحياء فى سلوكهم الاجتماعى ، فإذا عبر الأديب عن حياة فرد أو حياة جماعة فى صورة فنية ، فما يستطيع أن يفصل بين هذه الصورة وصورة المجتمع الذى يحيا فيه الفرد أو الجماعة ، وإلا كانت الصورة زائفة ، مكذوبا بها على الحياة والأحياء .

على أن الأديب — فى نفوذ بصيرته ، ورقة مشاعره ، ورهافة إحساسه بمواطن الحق والخير والجمال — يمثل يقظة الوجدان ، وصفاء الروح ، وقوة الالتقاط لما فى المجتمع من تيارات وخوالج ، فهو بخصائصه إنسانى النزعة ، جماعى الاتجاه ، ولا بد أن يكون تعبيره عن مجتمعه تعزيزاً لأكرم ما فيه من مثل ، وتأييداً لما تتمخض عنه الطاقات الفكرية والقومية ، من معان رفيعة ، وأوضاع رشيدة ، فى ممارسة الحياة .

ليس الأديب إذن بحاجة إلى من يحفزه حفزا إلى مناصرة مجتمعه فيما يهدف إليه ، ذلك لأنه مغمور بهذا المجتمع الذى يحتويه ، محوط بهتافاته وأشواقه وقصده إلى غاياته ، متأثر بكل ما حوله من قوى خلاقة ، وانطلاقات جماعية بناءة ، فإذا جرد قلمه ليصور فإنما يجرده ليصور مجتمعه نفسه ، وإذا عبر فإنما يعبر عن روحه ، يستلهمه ويلهمه ، ويستوحيه ويوحى إليه .

والأديب فى تصويره مجتمعه شأن غير شأن من يدرس قضية من القضايا ، عامدا إلى تجميع أسباب الدفاع عنها ، والتفنن فى حمايتها عما يفترى به عليها ، فإن شأن الأديب أن يكون صادقا مخلصا فى استشفاف ما يجول فى نفسية مجتمعه من عوامل التطور ، وأن يؤمن أعمق الأيمان بأن الولاء للتقدم الاجتماعى فى أمته فرض عليه ، ومتى صدر الأديب فى عمله عن الصدق والإخلاص والإيمان فسيرجح العمل فى ميزان الفن الأصيل . وكم من أحداث تاريخية غابرة ، وتطورات قومية سحيقة ، عبر عنها أدباء قدامى تعبيراً فنيا فى صدق وإخلاص وإيمان ، فلم تبق تلك الأحداث والتطورات الماضية فى سجل التاريخ المأثور ، بقدر ما بقيت أعمال أولئك الأدباء القدامى فى سجل الفن الرفيع .

ونحن فى مجتمعنا المعاصر لا يعوزنا التكافل والتضامن والإحساس الجماعى بالمسئوليات والتبعات التى يلقيها على عواتقنا عهدنا الجديد ، ولقد انطوت مسافة الخلف فى وطننا بين الحاكم والمحكوم ، فتلاقت الدولة حكومة وشعبا على مبادىء وأهداف ، وكما وجد الأدباء أنفسهم موالين من ذات أنفسهم لهذه المبادىء والأهداف ، فى صدق وإخلاص وإيمان ، أوجبت الدولة على نفسها تقدير الأدب ، وتشجيع الأديب ، فلقد اتخذت من الوسائل أنجعها فى تنمية المواهب الفنية وتعزيزها وإمدادها بما يزكيها ، ولم يكن بها فى تحقيق ذلك ضنانة بمال أو تكريم أو تأييد .

ولكن الأمر على أية حال ما برح مفتقراً إلى تدخل المشرع لحماية حقوق للأديب ضائعة ، ولتنظيم أوضاع فى شأن الأداء الفنى غير محكمة ، ولعل ذلك من أثر الرواسب التى لم تعالج فى العهود المواضى فى مختلف نواحى حياتنا العامة ، ونحن نعمل جاهدين على إزالة هذه الرواسب ما وجدنا إلى ذلك من سبيل .

كيف أصبحت قصصيا؟

نشأت في بيت أكثر ما فيه الكتب ، فقد كان أبي المرحوم « أحمد تيمور » ولوعا بجمع ما تمخضت عنه القرائح العربية في كل علم وفن، لا يكاد يدع منها مطبوعا أو مخطوطا في الشرق والغرب ، ولعله كان بالمخطوطات أشد ولعا ، وحرصه على اقتنائها أبعد مدى ، ومرت الأيام تباعا ، و « الخزانة التيمورية » التي تحتل الآن مكانا كريما من «دار الكتب المصرية» تكبر ، وأنا أكبر معها ، وأزداد من تقديرها ، وكان أبي ينفق أطيب وقته بين حجراتها ، ويرصد أعظم جهده في سبيلها ، حتى لقد خيل لي — وهو يتنقل بين أصونتها ورفوفها — أنه قد غدا فيها كتابا حيا ينطق بما بين دفتيه .

ولما اشتد عودي ، وأحسنت القراءة والكتابة ، ألفيت أبي يهدي إلي مجلدا ضخما من كتاب « ألف ليلة وليلة » في طبعة مهذبة محلاة بالتصاوير ، فما هي إلا أن أقبلت على الكتاب ، أسبح فيما حوى من حكايات شائقة ، وكنت أجمع من يرغب في الاستماع من عشيرة البيت ، فأعيد عليهم تلاوة ما قرأت ، ولعل السر في

إعجابى بـ « ألف ليلة وليلة » فى تلك المرحلة من حياتى ، هو مشابهتها «للحواديت» ، وهى القصص الساذجة الخرافية التى استمعنا إليها من العجائز ، يسامرننا بها فى عهد الطفولة الأولى ، فكأننا كنت بقراءة «ألف ليلة وليلة» أستعيد سذاجة ذلك العهد المحبب الأنيس ، وما منا إلا من يشعر بحنين إلى بواكير أيامه ، وهو حديث عهد بالحياة . ولم يكن كل ما يعجبنا فى « ألف ليلة وليلة » مجرد شبهها بالقصص البطولية الساذجة ، فقد راقنا منها مع ذلك اتساع الخيال ، وخلابة الأحــداث ، وطرافة الصور ، والجو الشرقى الساحر الذى يمت إلى نفوسنا بأوثق الأسباب ، ذلك الجو الحافل بالمغامرات التى تهفو نفوسنا إلى مزاولتها ، نشرك الأبطال فيما يقومون به من أعمال ، وما يخوضون من أخطار : ترتفع مع الرخ إلى السموات العلى ، ثم نهبط من « وادى الثعابين» إلى « مغارة الموتى » ، وإذا نحن ننفذ منها إلى « مدينة النحاس » نهيم فى صمتها المرهوب ، ثم لا نلبث أن نئوب إلى الأهل والأحباب ، محملين بالذهب والفضة ، متحلين باللآلىء واليواقيت !

ولا ريب فى أن « ألف ليلة وليلة » مما يذكى فى نفس القارىء موهبة التخيل ، ويمده بعناصر الخلق القصصى . ولم يكن عبثا أن يقول «فولتير» : إنه قرأ ذلك الكتاب مرات قبل أن يجرى قلمه

بكتابة قصة ، وأنه تمنى أن يفقد ذاكرته ليستطيع أن يقرأ الكتاب من جديد بمثل اللذة التى قرأه بها أول مرة .

ولقد أثار كتاب « ألف ليلة وليلة » ميلى إلى قراءة أمثاله ، فأمدتنى مكتبة أبى بما أطمح إليه . وأذكر أنه كان فيما قرأت يومئذ من كتب الأسمار ونوادر الأخباريين كتاب « إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس » وكتاب « نفحة اليمن ، بما يزيل الهم والشجن » ، وغيرهما من النظائر والأشباه .

وامتدت عينى إلى غير ما تحويه خزانة أبى من روايات عصرية مترجمة ، فوجدتنى أجنح إلى إيثار « القصص البوليسى » ، أعنى قصص الحيلة والجريمة ، وأذكر منها الآن روايات « نقولا كارتر » و « شارلوك هولمز » و « سنكلر » . فقتنت أيما فتنة بما يبديه الأبطال من ذكاء ، وسرعة خاطر ، وحضور بديهة ، وقدرة بارعة على التخلص من المآزق وكذلك أعجبت بما تدبر القصص من مفاجآت مثيرة تملك على القارىء انتباهه ، وتحمله على متابعة القراءة فى شوق موصول .

وفى صيف من الأصياف ، وأنا مغمور بما قرأت ، وما وعيت ، من هذا اللون القصص الغربى ، سافرنا إلى الضيعة فى الريف ، والحياة هنالك هادئة يتسع فيها وقت الفراغ ، والجو

(١٣)

هنالك مهيأ للتأمل والانطلاق فى آفاق الخيال ، فألفيتنى أخلو إلى نفسى ، وأغلق الباب دونى ، وأجلس إلى أوراق وأقلامى ، أدبج قصة هندية الأحداث ، بطلها ضابط إنجليزى يجنى على فتاة وطنية ، فينبرى أهلوها يثأرون لها ، وينتقمون ممن أساء إليها . وجعلت للقصة عنوانا عظيما ، هو : « الشرف الرفيع » . وما فاتنى أن أرصع القصة ببيت « المتنبى » :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبـــه الدم

ولما أتممت تحبير القصة هرعت بها إلى أبى ، ورجوت منه أن يبعث بها إلى إحدى الصحف لكى تنشرها باسمى ، وكانت سنى إذ ذاك لاتتجاوز الرابعة عشرة ، فألقى أبى على القصة نظرة خاطفة ، ثم ابتسم لى ، وربت كتفى ، وقال :

حسنا كتبت ، وسأنظر فيما رغبت فيه من نشر القصة .

وانقضت أيام ، وأنا أرتقب ظهور القصة العظيمة ، وطال ارتقابى ، حتى ألهتنى عنها الشواغل . . . . وبعد حين صادفت باكورتى فى الكتابة القصصية مسجاة فى زاوية من مكتب أبى ، تشكو الصد والإعراض . فأدركنى عليها إشفاق ، وهممت أن أتناولها ، ولكن إكبارى لأبى منعنى أن أفعل ، فانتظرت حتى

لقيته ، وفاتحته فى الأمر ، فطلب منى أن أعاود تجربة الكتابة مرة أخرى ، لعلى أبلغ من التوفيق ما لم يتح لى فى التجربة الأولى .

وإذا كان أبى صاحب الفضل الأول فى إذكاء موهبتى الكتابية بما يسر لى من المطالعة ، فى صباى الباكر ، فإن الذى بعثنى على أن أكتب فى جد وتصميم هو شقيق المرحوم « محمد تيمور » ، إذ وجه موهبتى توجيها استفاده من ثقافته وخبرته وذوقه ، وكان يومئذ قد عاد من « فرنسة » بعد أن قضى فيها ثلاث سنين ، يتزود من الأدب العصرى الأوربى ما طاب له أن يتزود .

وشرع شقيقى يعالج فيما يعالج من ألوان الكتابة رسم ألواح قصصية ، أظهر ما فيها معالم حياتنا المحلية ، وأمهات مشكلاتنا الاجتماعية . وكانت كتاباته فى هذه الناحية فسحا لنطاق الأدب العربى ، ونقلا له من موضوعاته التقليدية المتوارثة إلى تسجيل ما يعتلج من آمال وآلام فى نفسية المجتمع المصرى ، داخل إطار قصصى .

ولبثت أرقب عن كثب شقيقى يعرض محاولاته فى هذا الباب ، فإذا تحرك قلمى للبيان والتعبير ، ألفيتنى أوثر ذلك اللون الذى كان يسمى حينئذ « الشعر المنثور » ، أبث كلماته ما يضطرم به وجدانى من عواطف ومشاعر وخطرات . ولم يكن ذلك

الشعر المنثور يخلو من وشائج هي في باب القصة أدخل منها في باب المقال . على أني كنت في هذا الاتجاه متأثرا — لا شك — بما توهج في أفقنا الأدبي لذلك العهد من لوامع أدب المهجر ، بأقلام « جبران » و « الريحاني » و « نعيمة » ومن إليهم ممن زفتوا إلى الكتابة العربية أدبا عاطفيا إنسانيا جديداً في روحه ، يمس من القارىء شغاف قلبه ، ويثير فيه كوامن عطف ورحمة وإشفاق .

وفي ذلك الوقت كنت أستنير في مطالعاتي بهدي شقيقي ، فنصح لي فيما نصح بأن أطالع « حديث عيسى بن هشام » للأديب العربي الصميم « محمد المويلحي » ، وقصة « زينب » للكاتب الاجتماعي المفكر « محمد حسين هيكل » ، فلمحت فيهما مسحة تختلف عن الأدب « الروما نسي » الذي كنت غارقا فيه ، مسحة تهبط بالقارىء من سماء الخيال المجنح ، حيث يعيش الناس كالملائكة فوق الضباب ، إلى الأرض التي ندب فيها ، فنرى الناس من حولنا بشراً مثلنا على فطرتهم التي خلقوا عليها .

و « حديث عيسى بن هشام » هو المرحلة الثانية للقصة في الأدب العربي بعد « ألف ليلة وليلة » . وقد نحا فيه مؤلفه منحى حديثا ، فخياله واسع ، وسرده ممتع ، وشخصياته لا تخلو من إحكام في الرسم ، وإذا كان قد اقتفى أثر « المقامات » في بعض

أسلوبها ، فقد امتاز بأنه صاحب المحاولة الناجحة المبكرة لتمصير الأدب وصبغه باللون المحلى ، مع سموه عن الواقعية الساذجة .

أما « زينب » فهى أسبق عمل أدبى فى العصر الحديث ، مكتمل للعناصر الأساسية للقصص الفنى . ولا ريب فى أن هـذه القصة كانت مظهراً لنزعة التجديد ، ووثبة الخلق ، فيها انتفاضة وجدانية وطنية ، وفيها معالجة لتصوير الحياة فى رقعة كبيرة من هذا الوطن ، هى الريف ، فتوهجت فى القصة مشاعر وعواطف ، وتعاقبت صور محلية ، وتجلت شخصيات شعبية أريد بها جميعا أن تحقق غرضا هفت إليه نفوس الداعين إلى تجديد الأدب فى مستهل القرن الذى نعيش فيه . ذلك الغرض هو إنشاء أدب قومى السمات ، قومى الأحداث ، قومى الروح ، يتأكد به طابع القومية فى التعبير والتصوير .

ولم تقف مطالعاتى عنـــد الأدب العربى قديمه وحديثه ، ما ألف فيه وما ترجم إليه ، فقد كانت معرفتى بالإنجليزية والفرنسية قد نمت نمواً يمكننى من أن أقرأ الأدب الغربى فى هاتين اللغتين ، وأرشدنى شقيقى إلى قراءة ما كتب « موباسان » الفرنسى ، و « تشيخوف » الروسى فى مجموعاتهما القصصية . فقرأت لهما ، أو قل عببت من أقاصيصهما عبا ، فأما « موباسان »

فقد راقتنى منه قدرة على تصوير قطاعات كثيرة من الحياة مختلفة الألوان ، فيها بساطة وفيها صدق ، وفيها امتلاك لناصية الصياغة القصصية ، وفيها مهارة جمع الأطراف التى يبنى عليها العمل القصصى من أحداث وشخصيات . وأما « تشيخوف » فقد راعنى منه أنه يصور مآسى الحياة فى ألواح فنية ناطقة ، لعلها لا تستكمل صياغتها القصصية بالمعنى الشائع للقصة المحبوكة الأطراف ، ولكنها بضعة من الحياة فيها حرارة وفيها خفوق . ومع ما يبدو من بساطة الظاهر فى هذه الألواح فإنها تنطوى على معان عميقة ، وتحليل للنفس البشرية عجيب .

ويبدو لى أن تأثرى بما قرأت من أدب اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، قد أغضب علىّ شيطان الشعر المنثور ،فإذا هو يتخلى عنى ، شكر الله له ما صنع ، إن كان لإنسان أن يطلب الشكر للشيطان ! وجرى قلمى بقصة قصيرة هى « الشيخ جمعة » ، وعلى أثرها كتبت قصة أخرى هى « يحفظ بشباك البريد » والحق أن قصة « الشيخ جمعة » نصيبها من التصوير الوصفى أكبر من التأليف القصصى ، فضلا عن أن الواقعية فيها تكاد تكون هى العمل كله . والقصة الفنية إنما تكون مزاجا من واقع وخيال.على أن « الشيخ جمعة » لقى من القبول والاستحسان ما لم أتوقع ، إذ مس الموضوع

ناحية إنسانية فى تصوير ذلك الشيخ الفطرى فى نقاء سريرته ، وفى فلسفته الساذجة التى تستعلى على مشكلات الحياة . وكثيراً ما تتعقد المشكلات فى وجه الإنسان ، فتهفو نفسه إلى مثل تلك الفلسفة البدائية المريحة التى هى كالمرفأ تجنح إليه السفينة حين يكتنفها إعصار ، أو يعبث بها تيار . ولكن القصة التى أعتبرها مكتملة المزاج الواقعى الخيالى — أعنى مكتملة لعنصرى القصص الفنى — هى قصة « يحفظ بشباك البريد » ، وموجزها سخرية خفيفة بأدعياء المغامرات الغرامية ، وبخاصة فى فورة الشباب . وهذه القصة أتيح لها أن تترجم بعد ذلك بسنين إلى الإنجليزية فى كتاب يضم نخبة من القصص فى مختلف البلاد ، ولعلها كانت طليعة ما ترجم من الأدب المصرى العصرى إلى لغة أجنبية . وربما كان السر فى اختيارها لتمثيل أدبنا المصرى القصصى وقتئذ أنها كانت موفورة الحظ من اللون المحلى الذى يجذب أنظار القارىء الأجنبى .

وفجعنى القدر فى شقيق « محمد تيمور » سنة ١٩٢١ ، وهو من شبابه فى عنفوان ، وحوله هالة من الأمانى تتألق ، ولا تعرف مصيرها من بعده ، أتخبو بموته ، أم تتاح لها حياة وبقاء ؟

حقا ، لقد شعرت على أثر ارتحال شقيق إلى دار الخلود ، بانهيار ما كان يطمح إليه من نماء النبتة الجديدة ، نبتة القصة فى أدبنا

القوى الحديث ، تلك النبتة التي رواها بدمه، وارتقب لها أن تزدهر كل الازدهار .

ورأيتني أضعف من أن أخلف شقيق الراحل على ما كان يبشر به ، ويسعى إليه ، فأخلدت إلى سكينة اليأس ، بعض حين. ولكن عجلة الحياة جعلت تدفع بي في طريقها الممدود ، لا يعنيها من الأمر إلا أن تستكمل دوراتها ، ولا تبالي من انقطعت به الطريق . . . فأخذت جراح الفجيعة تندمل رويداً ، وإن كانت الذكرى باقية بقاء الروح في الجسد الحي .

ووجدتني أنشط لبعض العمل ، فلملمت ما تشعث من قواى ، وخطوت على الدرب في تؤدة وحذر ، أنفض عن كتفي غبار اليأس ، وأقصي شبح الإخفاق، معوّلا على نفسي، مهتدياً بهدى شقيق الراحل . فكنت أكتب أقاصيصي مندفعاً بباعث من واعيتي الباطنة إلى استكمال ما كانت نفس شقيق تصبو إلى تحقيقه ، لو مد الله في عمره . وكنت أحس أني بهذا النشاط أكرم روح شقيق ، وأقرئها واجب التحية والإجلال .

وما إن أقبل عام ١٩٢٥ حتى كان قد تجمّع عندى ما يصح إخراجه في مجموعة قصصية ، فسارعت إلى طبع كتابي الأول «الشيخ جمعه وقصص أخرى» وأتبعته كتابي الثاني ، «عم متولى» .

ونفسى راضية عما أصنع ، وضميرى مستريح إلى أنى أحاول أن أستبق من شقيق الراحل جوهر حياته ، أعنى ما كان يهدف إليه ويهتف به من إرســـاء دعائم الفن القصصى العصرى فى الأدب العربى .

وإذا أنا ألزم نفسى التجرد للكتابة ، لا أنتهى من مجموعة حتى أكون قد نسجت الخيوط لمجموعة أخرى ، وتراءت لى مشاهد الحياة ، وشخصيات الناس ، وأحداث المجتمع ، ولوامع الأفكار ، كأنمـــا هى بضاعة قابلة للعرض فى مخيلتى الفنية ، داخل الإطار القصصى ، أو كأنما هى ألواح محشودة أمام عينى ، وعلىّ أن أنتقى منها ما أنقله فى حروف وكلمات .

وكان من الطريف أن يتحدث أصدقائى عنى بأنى أجالس منهم من أجالس ، وأتحدث إلى من أتحدث ، فلا يلبثون أن يروا سماتهم وقسماتهم وبعض خفايا نفوسهم فيما أنشر من أقاصيص ، وكأنى أذيع لهم أسراراً أو أصور منهم زوايا كانوا يصونونها عن العيون !

ولم أكن أبالى هــذا من الأصدقاء الظرفاء ، فقد شغلنى أن أجلو مرآة للحياة من حولى ، ولمن أعايش من خلق الله . فمن رأى فى تلك المرآة وجهه فلا تثريب علىّ ، بل لعل ذلك مما يزيدنى إيماناً وثقة بأنى لم أكذب فيما وصفت ، ولم أخفق فيما صورت . ولست

أخفى أن هزة من الغبطة والزهو كانت تعرونى حين أعلم أن بعض من أصاحب عرف نفسه فى معرض الشخصيات التى أضمنها ما أكتب من أقاصيص !

وفى خلال أربعين سنة ، أخرجت من كتبى القصصية جملة تبلغ عدة تلك السنين ، منها ما ترجم إلى لغات شرقية ، ومنها ما ترجم إلى لغات غربية . ولقد كتبت القصة قصيرة ومطولة ، وكتبتها للقراء والمسرح ، واستلهمت فى كتابتها روح العصر مرة وأحداث التاريخ مرة ، وطوفت بالمدينة أحياناً وبالريف أحياناً وبالبادية أخرى ، ومشيت فى دروب الواقع خطوات ، وحلقت فى آفاق الخيال شأواً بعد شأو ، واستجبت لهواتف شتى من مسرات وأحزان ، وجلوت من سرائر النفوس ما استطعت أن أجلو ، وعالجت من مشكلات الحياة ما تيسر لى أن أعالج . . .

وكنت فيما أكتب أنتقل من مرحلة إلى مرحلة ، ومن عهد إلى عهد ، لا أجمد عند مذهب أدبى بعينه ، ولا أقنع بلون من ألوان الأداء الفنى أستمسك به لا أعدوه ، يحدونى فى ذلك كله ما اكتسبت من خبرة بالوجوه ، ومن تجربة فى المجتمع ، ومن دؤوب على الاطلاع فى مختلف فروع الثقافة ، ومن رحلات فى الشرق والغرب . ولا أنسى ما أفدت من سخط الناس على ما أكتب طوراً ورضاهم

عنه أطواراً . ولعلى أفدت من النقد والملاحظة أضعاف ما أفدت من الثناء والإطراء .

وأنا الآن فى مرحلة أعالج فيها كتابة القصة ، وأوازن بين المرحلة الأولى ، مرحلة قصة «عفظ بشباك البريد» التى كتبتها منذ أربعين عاما ، مقتصراً فيها على تصوير شخصية شاب من أدعياء المغامرات الغرامية ، وبين المرحلة الحاضرة التى أعالج القصة فيها ، مستنفداً ما كسبت وما أفدت من طول المرانة ، ومعاناة الدرس ، ومن فهم لأصول القصة الفنية ، وضرورة استيفاء حظها من التحليل النفسى ، ومن التعمق فى النزوع الإنسانى الذى يمت إلى غرائز نابتة تمثل كفاح البشر فى معركة الحياة ، على مسرح الوجود .

وفى هذه المرحلة الحاضرة ، التى أستدير بها تلك المراحل السالفة ، أنصت إلى من يسألنى :

كيف أصبحت قصصيا ؟

فأرانى أفكر فى السؤال ملياً ، ولا أملك إلا أن يكون جوابى هو أن أسأل نفسى فى صدق وإخلاص :

هل أصبحت قصصياً حقاً ؟ !

محتويات الكتاب

رقم الإيداع ٣٢١٩ / ١٩٧٠